الصحوة الإسلامية

نقد ومراجعة

3

أ.د.عبد الكريم بكار

رؤية للثقافة والإعلام

مُقَدِّمَة

الصحوة الإسلامية -بفضل الله- أصبحت واقعاً معاشاً، جعل الإسلاميين يتصدّرون المشهد في الدول المسلمة.

ولكن هذه الصحوة تحتاج إرشاداً وتوجيهاً، فالنظريات شيء، والتفاعل مع الواقع الحياتي شيءٌ آخر، فالحياة مليئةٌ بالتحديات والصعوبات، وبما أن أفكار الصحوة اجتهادات بشرية، تسعى للاقتراب من النصوص المنزَّلة، فمن المؤكّد أن هذه الاجتهادات سيعتريها قصورٌ وهفوات، وترشيدُ الصحوة من مهام حكماء الأمة ومفكريها.

وأستاذنا الدكتور (عبد الكريم بكّار) -حفظه الله- قد أدلى بدلوه في هذا المضمار، فألّف كتابه: (الصحوة الإسلامية، صحوة من أجل الصحوة)، تحدّث فيه عن أسباب نشأة الصحوة، ومراحل تطوّرها، وردَّ على المقولات التي تشكّك بها، ثم نَقَدَ الصحوة نَقْدَ المشفِق الأمين، ووجَّه الصحوة في طريقة التعامل مع الآخر، ووضع رؤيته في طريقة تعامل الصحوة مع القيم، وأجاب عن تحدي التجديد الذي تحتاجه الصحوة، ثم تكلم عن الصحوة وارتباطها بتحدي النهضة والحضارة، ووضع رؤيته للنهضة الاقتصادية وللنهوض بالسياسة.

فكان كتابه سِفراً قيّماً على عادة الأستاذ البكّار، لكن -مع الأسف- لاحظتُ أن هذا الكتاب لم يلقَ الانتشار الذي يليق به، ولعل أحد أسباب ذلك هو كبر حجمه حيث جاء بـ (٣٣٠) صفحة، فارتأينا في (مؤسسة رؤية للثقافة والإعلام) تجزيئه لعدة أجزاء موضوعية، وإعادة نشره مجزّأً، مما يُشجّع على قراءته، وبخاصة أن مزاج الناس أضحى ميّالاً للاختصار على طريقة وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، وبالمناسبة فمن اختراعات الدكتور البكّار الحسنةِ أن يضع في نهاية كتبه (خلاصات) هي أشبه بالتغريدات، للأفكار الواردة في الكتاب، وهي عادةٌ قديمة له.

ومما شجعنا على تقسيم الكتاب أن بعض الناس يحتاج موضوعاً خاصاً، وهو من موضوعات الكتاب، ولا يخطر بباله وجوده ضمنه، أما بعد نشر العنوان الفرعي مستقلاً، فيسهل الوصول إليه لمن يرغب.

وقد جزأنا الكتاب إلى عشرة أقسام وهي:

١- الصحوة الإسلامية بدايات وأطوار.
٢- الصحوة الإسلامية والمشككون فيها.
٣- الصحوة الإسلامية نقد ومراجعة.
٤- الصحوة الإسلامية والآخر.
٥- الصحوة الإسلامية والقيم.
٦- الصحوة الإسلامية وتحديات التجديد.
٧- الصحوة الإسلامية وأسئلة النهضة ويشمل الجزأين الثامن والتاسع.
٨- الصحوة الإسلامية والنهضة الاقتصادية.
٩- الصحوة الإسلامية والنهوض بالسياسة.
١٠- خلاصة كتاب الصحوة الإسلامية، صحوة من أجل الصحوة.

وهذا هو الجزء الثالث من سلسلة (الصحوة الإسلامية).

والله الموفق وعليه الاتكال.

مدير مؤسسة رؤية للثقافة والإعلام

حذيفة عكاش

استنبول ٢٠١٦/٩/١٩

المُقَدِّمَة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام النبيين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن أمة الإسلام تتفيَّأ اليوم ظلال صحوة مباركة، عمَّت العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه؛ حيث تحسنت معرفة كثير من المسلمين بأحكام الشريعة الغرَّاء، وصار كثيرون منهم يحاولون الوقوف عند حدود اللَّه تعالى، كما أن عددًا كبيرًا من المسلمين يشعرون بأن اللَّه تعالى امتنَّ عليهم بالهداية للإسلام؛ ولهذا فإنهم يشعرون بنوع من الاصطفاء والتميز. ولا يخفى أنه مرَّ على أمة الإسلام قرون تزيد على الستة أو السبعة، كان الناس فيها غارقين في الجهل والفرقة وغارقين في اليأس والقنوط من صلاح الأحوال، وإن من سنن اللَّه تعالى في الخلق أن الناس حين تضعف صلتهم بالعلم وبرسالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإن الشيء الذي يسيطر عليهم، ويوجه حياتهم لا يكون سوى الخرافات والأوهام والتقاليد، إلى جانب الرؤى الفجة المصحوبة بالكثير من الحيرة والارتباك، وهذا هو الذي كان سائدًا لدينا - مع الأسف الشديد - على مدار قرون خلت، إلا أن اللَّه اللطيف الخبير قد أذن لهذه الأمة أن تنتفض بين فينة وأخرى في وجه قصورها الذاتي وأخطائها الكبرى، وفي وجه الظروف الصعبة التي تحيط بها، وقد عبَّر عن ذلك نبينا ﷺ حين قال فيما صحَّ عنه: « **إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة من يجدِّد لها دينها** »[1].

إن مشيئة اللَّه تعالى قد مضت في أن يكون معظم نصوص الكتاب والسنة ظنيًّا في دلالاته على المراد منه، كما أن ترتيب الأولويات وتحقيق المصالح ودرء المفاسد وكون التكليف منوطًا بالوسع والطاقة... إن هذا كله جعل إمكانات التجديد قائمة على نحو دائم كما جعل إمكانات الوقوع في الأخطاء مستمرة أيضًا، مما يعني في نهاية المطاف استمرار وتتابع الصحوات الإسلامية جيلًا بعد جيل وقرنًا بعد قرن.

---

(١) أخرجه أبو داود.

إن الذي دعاني إلى كتابة هذا الكتاب العديد من الأمور، **لعل من أهمها:**

١ - طرح رؤى وأفكار ومفاهيم جديدة تساعد الصحوة على أن تكون أكثر رسوخًا وتأثيرًا في حياة العالم أجمع.

٢ - مراجعة بعض الأفكار والاجتهادات والسلوكيات التي نعتقد أنها تحتاج إلى تطوير بما يتناسب مع رؤانا الجديدة ومع الظروف والأوضاع العالمية الماثلة اليوم.

٣ - تسليط الضوء على الأخطاء الفادحة التي وقع فيها بعض الصحويين بقطع النظر عن نواياهم ومقاصدهم.

٤ - محاورة خصوم الصحوة والمختلفين معها في بعض مقولاتهم، ومحاولة تكوين أرضية مشتركة يقف عليها الجميع.

إن هذا العمل ينطوي - ولا شك - على الكثير من الحساسية بسبب أنه يشتمل على بعض النقد لمناهج ومواقف بعض الأحزاب والجماعات والاتجاهات... ولكن يبدو أنه ليس أمامي أيُّ خيار آخر، فالصحوة الآن في الواجهة، وأبناؤها كثيرون ومتنوعون تنوعًا كبيرًا، وإذا رضي بعضهم عن شيء مما أقوله، فلن يرضى آخرون، لكن القيام للَّه تعالى بالحق والرغبة في محاولة النهوض بمسؤوليات البلاغ المبين، بالإضافة إلى الرغبة في الاستدراك على الذات، إن كل هذه الأمور وأمورًا أخرى تجعلني أمضي في هذا العمل مستعينًا باللَّه ﷻ متوكلًا عليه دون رهبة مما قد أتسبب به من إزعاج لهذه الجهة أو تلك

واللَّه تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع إخواني الدعاة الساعين في طريق الإصلاح؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

أ. د. عبد الكريم بكار

فهرس

* **الصحوة: نقد ومراجعة** ٤٣
لا بديل عن النقد ٤٣
أمور تستحق المراجعة ٤٥
١ - الاستخفاف بالتنظير ٤٥
٢ - الارتباك في التعامل مع التيار العنيف ٤٧
٣ - تراجع في الجهد التربوي ٥٠
٤ - قصور في فهم الواقع ٥٤
من مظاهر قصور فهم الواقع ٥٥
أ - التخمين عوضًا عن البحث ٥٥
ب - الانشغال بإنجازات السلف ٥٦
ج - رجال إطفاء ٥٧
د - التنافس على النفوذ ٥٨
ملاحظات في هذا الشأن ٥٩
٥ - عقدة المؤامرة ٦١
٦ - الإسراف في استخدام المقولات الجاهزة ٦٢
٧ - التضامن الآلي ٦٤
٨ - المبالغة في تقدير المظهر ٦٦
٩ - العمل الجماعي: هل هو غاية؟ ٦٨
١٠ - خطاب متشائم ٧٠
١١ - الوصاية على المدعوين ٧٣
١٢ - هل وحدة العمل الإسلامي مطلب؟ ٧٥
ما العمل؟ ٧٧
١٣ - خطورة التنظيم السري ٧٨
١٤ - الجماعات الإسلامية وضعف الإدارة ٨١

الصحوة:
نقد ومراجعة

ذكرت فيما مضى أن الصحوة الإسلامية ليست عبارة عن هيكل أو جسم منظَّم، يتمتع بروح وعقل واحد، أو يمضي على منهج موحَّد؛ ولهذا فإن من المهم دائمًا الإشارة إلى أن النقد الذي نوجهه للصحوة لا يصدق على جميع أطياف الصحوة، فنحن إذا قلنا: إن الصحويين قصَّروا في تحسين الوعي السياسي أو الاجتماعي - مثلًا - لا نقصد جميع الصحويين، فهناك من بذل جهودًا مقدَّرة في ذلك، وهناك من الفصائل الإسلامية من تكمن مشكلتهم الأساسية في التعويل على السياسة بوصفها الرافعة الأساسية في مجال التغيير. إذن كل ما يقال في نقد الصحوة قد يصدق على بعض تياراتها وفصائلها وأفرادها، ولكنه لا ينطبق بالتأكيد عليهم جميعًا، لكن حين ننظِّر لمستقبل الصحوة، فإن ذلك التنظير محتاج إلى إصغاء الجميع، الذين يمكن أن يستفيدوا منه، والذين يمكن أن ينقدوه، ويطوِّروه. إن هذا الحراك الهائل في مراجعة إنجازات الصحوة وإخفاقاتها من قِبَلِ أبنائها وخصومها يشير على نحو جدِّي إلى ما تتمتع به الصحوة من ثقل ومركزية في الحياة العامة، وليست دلالات نقد خصوم الصحوة أقل وضوحًا من نقد محبيها وحماتها، وقد صدق من قال: إذا رأيت الناس يرمونك بالحجارة من الخلف، فاعلم أنك في المقدمة !.

لا بديل عن النقد:

على مدار التاريخ كان النقد بالنسبة إلى من يمارسه شيئًا مغريًا؛ لأنه يمنحه تفوقًا، وتميزًا فوريًّا، وعلى مدار التاريخ كان النقد بالنسبة إلى من يمارَس ضدهم شيئًا غير مرغوب، ويجب أن نعترف أن كثيرًا من الصحويين؛ ولا سيما من لهم اتجاه روحي وتربوي منهم، يضيقون بالنقد، وينظرون إلى من يمارسه من الأتباع أو البعيدين على أنهم خصوم أو جهلة أو عملاء، أو حاسدون...، ولهذا فإن عملية النقد عملية حسَّاسة، ولا تنبع حساسيتها من هذا فحسب، بل لا بد من إدراك التوازن في المسألة، فالإسراف في النقد قد يصبح مصدرًا للإحباط والقنوط، وقد يجعل صاحبه يظهر في مظهر الذي لا يحسن سوى الكلام مع الغفلة عن الصعوبات التي تواجه العاملين في الساحة. وقد

مضت سنة اللَّـه تعالى في الناس أن ينفروا من النقد في حالات النصر والتمكن، ربما لأنهم لا يريدون لاستمتاعهم بالمنجزات أن يتكدر بأي شيء، لكن الناس ينسون أن النجاح والتغلب على المنافسين من الأشياء التي تُغري بالوقوع في الخطأ من خلال ما توفره من قوة، ومن خلال ما تفرزه من قيادات تاريخية قد تصبح عند بعض الجماعات أهم من المنهج وأهم من الجماعة نفسها؛ ولهذا فإننا نحتاج إلى المراجعة ونحن في قمة نجاحنا؛ لأننا بالمراجعة نوفر وقودًا جديدًا لاستمرار المسيرة، وضمانات جديدة لصواب الاتجاه.

نحن في حاجة إلى النقد حتى نكتشف ما لدينا من أفكار معطوبة، وحتى نضع أيدينا على التطبيقات الخاطئة، ونحن في حاجة إلى النقد كي نفهم عصرنا وما يمليه علينا من تكيف وتطوير، ونحن في حاجة إلى النقد كي نكبح نزوات نفوسنا وتطلعاتنا غير المشروعة؛ وذلك لأن من السهل أن يستولي بعض الناس على مقدرات الدعوة وإمكاناتها، فتصبح في خدمة مصالحهم عوضًا عن أن تكون في خدمة الدين والأمة.

في الفلسفة اقترن العقل بالنقد، وحظيت المهمة النقدية للعقل بالكثير من الإجلال والإكبار؛ ولهذا فإن المتخصص مهما بلغ من التبحر في تخصصه فإنه يظل أقل شأنًا من الفيلسوف ومن المفكر ما لم يمتلك رؤية نقدية للمجتمع والواقع، وما ذلك إلا لأن العلم يساعدنا على أن ننفِّذ الأشياء بطريقة صحيحة، أما النقد، فإنه يدلنا على المجال الصحيح الذي يجب أن نبذل فيه الجهد، وقد قالوا: إن الإنسان بالعلم عرف كيف يصنع السلاح، وكيف يقتل به، لكن الحكمة هي التي تجعلنا نعرف متى نقتل، ونعرف من الذي يستحق القتل

إن النقد عبارة عن عملية جراحية ذات بعد شعوري وفكري، وهو حين يكون جذريًّا، - أي موجَّهًا إلى أصول وكليات واتجاهات عامة - يكون أشبه بجراحة قلب مفتوح أو استئصال ورم سرطاني أو زراعة كبد... ومن ثم فلا بد من ممارسته بكثير من الاحتياط والأناة حتى لا يؤدي إلى تدمير الرؤية العامة للمجتمع، فالقفز في الهواء سهل جدًّا، لكن لا بد من أن نحسب حساب ما قد يترتب عليه من الارتطام بالأرض أو السقوط على جسم حاد، إن النقد يمكن أن يصبح أداة تخريب إذا تحوَّل من وسيلة إلى غاية؛ إذ إن حالنا حينئذ تشبه حال الطبيب الذي يُجري لمريضه عملية جراحية من أجل المال الذي سيحصل عليه، وليس من أجل مصلحة المريض!

في حالات (الركود الحضاري) تذبل ملكات النقد حيث يسود التقليدُ وتجميدُ ما هو حاضر، أما في حالات (الفوران النهضوي) فإن المجتمع كثيرًا ما ينقسم إلى فئتين: **فئة خائفة من عواقب التطورات السريعة؛ ولهذا فإنها تنزعج انزعاجًا شديدًا من ممارسة النقد، ومن الطروحات الفكرية الجديدة.. وفئة تمارس التغيير بشيء من الغلو والهيجان، إنها تريد لكل شيء أن يتغير دون أدنى اهتمام بما يترتب على ذلك من تفسخ أخلاقي وفقدان للتوازن الاجتماعي العام.** وتدل تجارب كثيرة على أننا في حاجة إلى الكثير من الإخلاص والوعي حتى نجعل من التزاوج بين أنشطة ومواقف هاتين الفئتين شيئًا منجبًا ونافعًا، إن الإخلاص يجعلنا نتحرَّى الحق، ونسعى إلى اكتشافه، كما يجعلنا نرضخ له عند العثور عليه، أما الوعي، فإنه يحملنا على تلمس الحد الذي يجب أن نتوقف عنده في حالة الميل إلى المحافظة على الأوضاع القائمة، وفي حالة الرغبة في التخلص منها، ومن المؤسف أن عقولنا ليست مهيَّأة على النحو المطلوب لإدراك الحد الذي تتحول الفضيلة بعد تجاوزه إلى رذيلة، والصواب إلى خطأ، وهذا يدعونا إلى أن نخفف من حماستنا لآرائنا وطروحاتنا في حال ممارسة النقد وفي حال تلقيه من الآخرين.

أمور تستحق المراجعة:

لا أستطيع في كتاب كهذا الكتاب أن أتحدث عن كل ما أعتقد أن على قيادات الصحوة الإسلامية مراجعته أو تغييره؛ فالتنوع الموجود في تيارات الصحوة يفتح أبوابًا واسعة جدًّا للاختلاف والتباين، وما يترتب عليهما من ممارسات نقدية كثيرة؛ ولهذا فلا بد من الاقتصار على ما نعتقد أنه يتمتع بأهمية خاصة من ذلك، لكن **أود أن أؤكد وأوضح دون ملل أن معظم ما نأخذه على الصحوة لا ينطبق على كل تياراتها، وهو حين يصدق على تيارين أو ثلاثة لا يصدق عليها بدرجة واحدة، فحين نقول: إن عند الجماعة الفلانية والفلانية قصورًا في تدعيم الجانب الروحي، فإن كلامنا لا يصدق عليهما بدرجة واحدة، فهناك دائمًا قصور دون قصور**

١ - الاستخفاف بالتنظير:

لدى جمهور الصحويين ولع بالعمل والحركة وولع بكثرة الكلام، ولديهم زهد واضح في الأعمال العقلية والثقافية الراقية، ولديهم زهد في التحليل: تحليل الأحداث التاريخية وتحليل الواقع وتداعياته وتشابكاته، ولديهم القليل من الاحتفاء بالكتب والبحوث

العميقة، وهذا كله لا يعني أن غير الصحويين هم أحسن حالًا منهم، فنحن لسنا في سياق التحدث عن الآخرين،وإن كان النظر المدقق يفضي بنا إلى أن معظم الكتَّاب الصحفيين ومعظم الروائيين الكبار، كما أن معظم الذين ينظِّرون للنهضة والتقدم الاجتماعي ليسوا من الصحويين، مع أن حصة الصحوة بين طلاب الجامعات وبين الشرائح الثقافية الدنيا أكبر من حصة أي اتجاه آخر ، وهذا حمل بعض المناوئين للصحوة على القول: إن الصحويين غير مثقفين بالقدر الكافي، بل إنهم يضمرون نوعًا من العداء للثقافة الراقية. وأنا ألمس الاستخفاف بالفكر المتقدم لدى كثير من الصحويين من خلال ما نشر لي من كتب ومقالات، فإذا كانت لغة الكتاب أو المقالة تميل إلى شيء من الصعوبة، قلَّ الذين يطالعونه، وإذا طالعوه على(الإنترنت) لم يعلقوا عليه، أو شككوا فيه بسبب عدم استيعابهم له، وإذا كانت لغته تميل إلى السهولة والبساطة كثر القراء والمعلقون. ادخل إلى المكتبات الإسلامية، وانظر إلى ما تقدمه دور النشر الإسلامية وقارنه بما تمت ترجمته من كتابات المستشرقين وغيرهم من الغربيين لترى صدق ما أقول. وإذا كان هذا ثابتًا فعلًا، فما الأسباب التي ولَّدت هذه الظاهرة المحزنة ؟

في ظني أن لهذه الظاهرة عددًا من الأسباب، منها:

أ - لدى كثير من الشباب المسلم اعتقاد بأن ما لدينا من آراء ونظريات وتحليلات في مجال الدعوة والإصلاح ومقاومة الشرور كافٍ بل فائض عن الحاجة؛ ولهذا فإنهم يتضايقون من التحليل والتفلسف وذكر الأسباب والعلاقات بين الظواهر المختلفة، وبعضهم يقولون: إن أسلافنا أسسوا حضارة ونشروا العلم في العالمين، ولم يكن لديهم إلا قدر يسير مما لدينا من أفكار ومقولات إصلاحية.

والحقيقة أن ما لدينا - على الصعيد الإسلامي العام وعلى صعيد الصحوة - من رؤى ومفاهيم أصيلة وعميقة ومتقدمة في مسألة الإصلاح أقل بكثير مما لدى غيرنا، وهذا يعود أساسًا إلى قلة أعداد الباحثين والكتَّاب في مسألة النهضة، كما يعود إلى ضعف تأهيلهم العلمي وتدريبهم العملي، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس.

ب - لدينا ألوف الكتب التي تعرض معلومات مكررة وجزئية في مختلف العلوم الشرعية والإنسانية،لكن ليس لدينا إلا القليل جدًّا من الكتب الجيدة التي تتحدث عن سنن اللَّـه تعالى في الخَلق وعن الطبائع التي فطر الأشياء عليها، والقليل جدًّا من الكتب

التي تتحدث عن تحليل كارثة توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء، والكتب التي تتحدث عن حكمة التشريع وتاريخه، والقليل من الكتب التي تحلل تحليلًا عميقًا بعض الظواهر الخطيرة التي تعصف بالأمة اليوم؛ كظاهرة الاستبداد وتبعاته الجسام وظاهرة استخدام السلاح وسيلةً للإصلاح والتغيير..، إن الصحوة متهمة بأنها هي التي أفرزت ظاهرة العنف، كما أن الصحويين هم أكثر من اكتوى بنارها على مستويات مختلفة، ومع هذا فلم نبذل جهدًا ذا قيمة في استكناه جذور هذه الظاهرة وأسبابها ومراحل تطورها وكيفية العمل على عزل الذين يعملون على استمرارها.... السبب في هذا هو سهولة الحديث في الأمور الجزئية، وصعوبة صياغة الرؤى والنظريات الكلية، وصعوبة فهم الظواهر المعقدة والمتداخلة، وهذا غير مستغرب في ظل وجود تعليم عام ضعيف يكيل الدرجات، ويمنح الألقاب العلمية الكبيرة دون أي شعور بالمسؤولية!

ج -أذكر أنه عند بدايات الصحوة كانت هناك مقولات شعبية سائدة، تصور أهل الدين بأنهم لا يصلحون لدراسة التخصصات العلمية الراقية؛ كالطب والهندسة، وهذا طبعًا في بعض البلدان، وكان الرد من الصحويين الأوائل سريعًا؛حيث اتجهت أعداد كبيرة من الشباب للالتحاق بالكليات العلمية، كما أن سوق العمل لا يحتاج إلا إلى القليل من ذوي التخصصات الأدبية والإنسانية، والحاصل هو انصراف أصحاب المواهب الفذة والهمم العالية من شباب الصحوة عن دراسة العلوم الشرعية والإنسانية، وهذا أدى إلى قلة الباحثين الممتازين في هذه المجالات، مع أن النبوغ في العلوم البحتة أسهل من النبوغ في العلوم الإنسانية؛ إذ إن في الإمكان الحصول على جراح ممتاز جدًّا وهو في سن الخامسة والثلاثين، لكن العثور على مؤرخ أو فيلسوف أو مفكر ممتاز لا يكون - في العادة - قبل بلوغ سن الخمسين.

العلوم البحتة بالنسبة إلى بناء الحضارة أشبه باليد التي تعمل، أما العلوم الشرعية والإنسانية عامة، فهي أشبه بالدماغ الذي يفكر؛ ولهذا فإذا أردنا للصحوة أن تصبح غنية بالمفكرين والنهضويين الكبار، فلا بد من توجيه أنبه أبنائنا وأعظمهم همة إلى الانخراط في الدراسات النظرية أنا لا أعمم، ولا أرتضي التعميم، لكن قصور التنظير والتحليل يشكل ظاهرة واضحة لدى الصحويين، وإن عليهم العمل على معالجتها.

٢ - الارتباك في التعامل مع التيار العنيف:

المراد بالعنف باختصار هو الاستخدام غير المشروع للقوة المسلَّحة، وهذا يعني

إخراج مقاومة المحتل والغاصب من المسألة؛ لأن حماية الأوطان وتحريرها والذود عن الحقوق واسترجاعها مطلوبة شرعًا. الصحوة متَّهمة بأنها هي التي بذرت بذور العنف في المجتمعات الإسلامية، ومن محاضنها التربوية تخرَّج كثير من الذين مارسوا العنف، وما زالوا يمارسونه في عدد من البلدان الإسلامية، ويبدو أنني أظل مضطرًّا إلى القول: إن كلامي لا ينطبق على كل الصحويين، فنحن نعرف أن هناك من استنكروا كل الأنشطة العنيفة من أول يوم، لكن هؤلاء لا يشكِّلون الشريحة الكبرى من أبناء الصحوة. الأكثرية كانت ما بين صامت عن التصرفات الغالية والعنيفة، وبين مجامل للشباب وخائف من انفضاضهم عنه، وهناك من قيادات الصحوة من ساهم في قيادة بعض الأعمال العنيفة، كما أن في الصحويين من كان يبدي نوعًا من الشماتة بأولئك الذين مُورس - ضدهم العنف من قِبَل بعض أبناء الصحوة. **ولعلي أشير في هذه القضية المهمة إلى بعض الأمور الأساسية:**

أ - علينا ونحن نتحدث عن العنف أو ما صار يطلق عليه اليوم (الإرهاب) أن نكون حذرين من أن نرسل رسالة خاطئة إلى أولئك الذين يمارسون العنف، ففهم العلل والأسباب والظروف التي تحيط بهذه الظاهرة، لا يهدف إلى تسويغها أو إبراء ذمة المتورطين فيها، **إنهم مخطئون بكل المقاييس وكل الاعتبارات، وهم يستخفون بدماء الأبرياء من شيوخ وشباب وأطفال ونساء، ولو وعوا الإنذار الرباني لمن يستبيح الدماء البريئة لفكَّروا ألف مرة قبل أن يُقدموا على ما يقدمون عليه، وإن رسول اللَّـه ﷺ قد وضَّح بجلاء شديد أن قتل الناس يتربع على قمة الموبقات الخطرة حين قال: « لن يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا »**[1]. **يقول ابن العربي: « الفسحة في الدين: سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت؛ لأنها لا تفي بوزره ».** وقد سمعت من يقول: إن الشباب الذين يستخدمون السلاح في التغيير أو في محاولة إقامة الدولة الإسلامية مستعجلون، فالظروف لم تنضج بعد، وهذا في نظري خطأ، فطريق العنف طريق مظلم ومسدود ولن يكون في يوم من الأيام غير ذلك.

ب - العنف شيء لصيق بحياة الكائنات الحية عامة؛ حيث لا تمر ثانية واحدة دون أن يُلتهم كائن حي من قبل كائن آخر، وإن المجازر الرهيبة التي وقعت في رواندا والبوسنة

---

(١) رواه البخاري.

والعراق والصومال وأفغانستان وغيرها - تدل دلالة واضحة على أن الرقي والتقدم الحضاري الذي أحرزه الإنسان في القرن العشرين ليس سوى قشرة رقيقة، وتحت تلك القشرة يكمن وحش كاسر، ينتظر الفرصة حتى يكشف عن طبيعته؛ ولهذا فيجب أن نتعامل مع العنف على أنه الشيء الذي يجد بنو الإنسان الإمكانية المستمرة لتسويغه وإضفاء المشروعية عليه.

الصحوة في حاجة ماسَّة إلى أن تحصن أتباعها من الانخراط في دوامة العنف من خلال العلم الصحيح والتربية الراشدة. وما أجمل قوله ﷺ: « **يا عائشة! إن اللَّـه رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه** »[1]، وقوله: « **إن اللَّـه ﷻ يحب الرفق، ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف** »[2].

ج - لا تستطيع الصحوة التبرؤ من الشباب الذين يمارسون العنف، فهم محسوبون عليها، وإن كانوا لا يشكلون واحدًا في الألف من الصحويين، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن (العنف) من الظواهر الكبرى الموجودة لدى المسلمين ولدى غيرهم، والظواهر الكبرى لا تُفسَّر بعامل واحد، وإذا أردت أن تعرف أين يترعرع العنف، فانظر إلى الأماكن الذي يترعرع فيها الفساد المالي والإداري، والأماكن التي تسود فيها الرشوة مع غياب العدالة الاجتماعية. العنف يترعرع حيث يسود الاستبداد، وحيث يحصل انسداد في الأفق السياسي، وحيث يصبح الكلام عن الأخطاء جريمة كبرى.. **إن هناك نقطة مهمة جدًّا، هي أن (العقيدة) وحدها غير كافية لتأجيج حركة احتجاجية عنيفة، يعرِّض فيها المحتج حياته لهلاك مؤكَّد، لكن العقيدة الدينية يمكن أن تكون الأساس لحركة احتجاجية، ولهذا فإن الإصلاح وتوسيع دوائر النقد وحرية التعبير من الأمور التي تخفف من التعانف الاجتماعي**، وكلما وجدَت المنافذ والآليات المشروعة للتغيير والإصلاح تراجع استخدام العنف، وإذا وجد في المجتمع طائشون أو مأجورون من أجل تعكير صفو الأمن العام، فإن المجتمع يرفض التستر عليهم وتقديم الدعم لهم.

د - العنف نوعان: معنوي ومادي، وإن العنف المعنوي هو الأساس الذي يمهد الطريق للعنف المادي، والسلام - كما يقال - والحرب يبدآن في عقول الناس أولًا، وينتهيان في عقولهم أولًا، ومن هنا فإن على الصحوة أن تحذر من التأسيس للعنف

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني.

الرمزي والمعنوي، وذلك من خلال الرؤية الحولاء للواقع ومن خلال التربية الخاطئة. حين تقوم جماعة بإفهام شبابها بأنهم الشباب الأتقى والأصلح، وأن منهجها هو أفضل المناهج، وأن اجتهاداتها هي الأقرب إلى الصواب، وأن العالم كله يتآمر على المسلمين... وأن علماء الشريعة هم عبارة عن عملاء للحكومات أو أصحاب أهواء... إنها حين تفعل ذلك أو شيئًا منه، فإنها تهيِّئ أتباعها لممارسة العنف المادي، والذي يعني استخدام وسائل مادية لحل الخلافات وتغيير الأوضاع السائدة. إن كثيرًا من الشباب يستخدمون العنف لأنهم يظنون أنه الطريق الأقصر لتحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، وهم بذلك واهمون، والتاريخ يشهد لذلك، فطريق الإصلاح بطبيعته طريق طويل؛ لأنه يقوم على التربية والتعليم والدعوة وتحسين المناخ العام على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، ومن المعروف أن الأفكار تحتاج إلى ثلاثة أجيال حتى تنزل من أعالي النظر لتتجسد في السلوك اليومي للناس.

هـ - لدى الناس أهواء وأفكار ومصالح متضاربة؛ ولهذا فإن اجتماع الإنسان مع الإنسان يولِّد الكثير من التوتر والنزاع، ومن هنا فإن براعة الصحويين تظهر في الطريقة التي يتبعونها في إدارة العنف والسيطرة على النزعة العدوانية التي قد تنشأ لدى بعض الشباب الملتزم أو في المجتمع على نحو عام، وأعتقد أن توضيح الحقوق والواجبات الاجتماعية على نحو جيد - بالإضافة إلى إشاعة روح التفاوض والحوار وروح العفو والتسامح - من الأمور المهمة في كبح جماح العدوانية، كما أن التسليم لأهل الاختصاص من الفقهاء وعلماء الشريعة فيما يقولونه، وتوفير فرص للتعبير عن الذات والطموحات وتوسيع مساحات النقد الاجتماعي والسياسي ومواجهة الفساد بقوة.. إن كل هذا سوف يقلل من الدوافع إلى ممارسة العنف، كما أنه سيسحب من ممارسي العنف ما حصلوا عليه من مشروعية أخلاقية وثقافية في المرحلة الماضية

٣ - تراجع في الجهد التربوي:

هل نستطيع أن نقول: إن الصحويين كانوا في بدايات الصحوة أكثر اهتمامًا بتربية الناشئة والأتباع منهم اليوم؟

نحن في الحقيقة لا نعرف الكثير عن حال التربية في أماكن عديدة من العالم الإسلامي، ومن الصعب التحدث حولها، لكن أعتقد أن المنطقة العربية - على الأقل - قد شهدت فعلًا تراجعًا ظاهرًا في الحماسة لبذل الجهد التربوي، وفي درجة فاعلية المحاضن التربوية،

وحين أعود بذاكرتي إلىّ السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم أشعر بقوة بذلك، فقد كان هناك ما يشبه الرهان غير المكتوب على أنه يمكن للجهود التربوية المكثفة أن تغير مزاج المجتمع وتحدث فيه انقلابًا سلميًّا؛ ولذلك فقد كانت المساجد تعج بالأنشطة التعليمية المحمَّلة بأشكال من العناية التربوية، كما أن ما لا يحصى من اللقاءات الأخوية كان يتم في البيوت، وكان لذلك كله أثر كبير في إعداد نماذج رفيعة من الشباب المستقيم الملتزم في سلوكه الخاص، **لكن هذا كله قد تراجع لدى كثير من الجماعات والتيارات الإسلامية، وأعتقد أن ذلك التراجع يعود إلى عدد من الأسباب، منها:**

أ - عند بدايات الصحوة كان كثير من الشباب يشعرون وكأنهم في بدايات ثورة نبيلة، فترى الحماسة للعطاء، والألفة بين أفراد مجموعات تشعر بضغوط الغربة عن المجتمع، إنهم يرون أن لديهم شيئًا فريدًا وقيِّمًا يستحق التضحية، وكان من الطبيعي أن لا تستمر هذه الفورة المشاعرية بعد أن كَثُـرَ المهتدون، والملتزمون بما تدعو إليه الصحوة، وقد كان الفتور أحد النتائج السلبية التي ترتبت على نجاح الصحوة. فتور المشاعر يؤدي قطعًا إلى تراجع الجهد التربوي الذي يحتاج إلى الكثير من الحماسة والصبر؛ وذلك لأن التربية مثل الحرب تحتاج إلى الرجل المكِّيث.

ب - كانت الجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربها هي التي تتولى تربية الشباب، ويشاركها في ذلك طبعًا مشايخ وطلاب علم وأئمة مساجد ودعاة لا ينتمون إلى أي جماعة، وكان من السائد الاعتقاد بأهمية تلقي العلم والتربية عن شيخ أو مربٍّ، وكانت هذه الفكرة - وما زالت - أصيلة لدى الجماعات الصوفية، لكن المصادمات التي وقعت بين بعض الجماعات الإسلامية وبين حكوماتها جعلت الانتماء إلى جماعة أو التردد على مسجد بعينه أو حضور دروس منتظمة فيه.. شيئًا مكلفًا أو خطيرًا، وهذا قلَّص الحماسة للانتماء إلى الجماعات والتتلمذ على المشايخ، مع أن تغيير الأخلاق والعادات يحتاج إلى احتكاك ومعايشة، ويحتاج إلى بيئة وجوٍّ تربوي، وهذه هي أزمة التربية على مدار التاريخ؛ لأن التربية تحتاج إلى أعداد هائلة من المربِّين بخلاف التعليم، وعلى كل حال فقد صار لدينا أعداد هائلة من الشباب المتعلم الملتزم بالإسلام والمحب له، لكنهم لم يتعرضوا لأي تربية روحية أو دعوية، ولا يخفى أيضًا أن كثيرًا من الجماعات فقدت لأسباب مختلفة جاذبيتها التنظيمية مما أدى إلى عدم مواكبة نموها للزيادة السكانية في بلادها.

ج - لدينا معاناة قديمة لا علاقة لها بالصحوة، وتلك المعاناة أننا إذا نفرنا من اتجاه أو علم نفرنا منه بالكلية غير مهتمين بالبحث عما قد يكون فيه من خير وصواب، ونحن نعرف - على سبيل المثال - أن الوعي الإسلامي جفل من(الفلسفة) في وقت مبكر من تاريخ الأمة بسبب تجاوز بعض الفلاسفة المسلمين لبعض الأصول والعقائد، وقد كان الجفول عامًّا، وقد فاتنا بذلك الكثير من الخير حيث صارت رؤانا لكثير من الأمور تميل إلى السطحية، كما صارت تحليلاتنا فجة ومستعجلة؛ وذلك لأن من الفلسفة فهم السنن الربانية في الخلق وفهم طبائع الأشياء وخفايا النفس البشرية وفهم العلاقات بين الأسباب والمسببات والتفكر في فقه المآلات...

وهذه أمور ضرورية جدًّا للتنظير وتحليل أسباب المشكلات وبلورة الرؤى الجديدة، وهذا ما حدث مع الاتجاه السلفي بالنسبة إلى (التصوف)؛ حيث إن السلفية قامت على تمحيص الأدلة وتخليص الأمة من البدع والخرافات والشوائب وقد قدَّمت بهذا وغيره للأمة والمنهج الإسلامي شيئًا كبيرًا ومهمًّا، لكن يلاحظ جفول الوعي السلفي من (التصوف) بقضِّه وقضيضه، حيث صارت هذه الكلمة لدى كثير من شباب السلفية من الكلمات التي لا ينبغي ذكرها إلا في مقام الذم، ومع أن لدى كثير من الجماعات الصوفية شيئًا من الانحراف على مستوى العقيدة والتصور، وعلى مستوى السلوك - بدرجات متباينة جدًّا - إلا أن من المهم ألا ننسى أن للصوفية عناية فائقة بأمور جوهرية تتصل بالتربية الروحية والتي تكتسب اليوم أهمية إضافية بسبب ما تحدثه العولمة من تخريب للقيم وبسبب التيار الشهواني الهائل الذي يجتاح كل شيء.

إن الصوفية يهتمون بأمور مثل محاسبة النفس والتوبة والإكثار من ذكر اللَّـه تعالى وترسيخ الحب والشوق إليه والخوف والحياء منه، كما يهتمون بمعانٍ مهمة، مثل: التوكل والرضا بالقضاء والقدر والصبر والتربية الإيمانية عامة... وقد أدى هذا النفور من التصوف عامة إلى أننا نجد اليوم درجة عالية من الجفاف الروحي لدى كثير من شباب الصحوة ذوي النزعة السلفية، وهذا الجفاف على خطورته يؤدي إلى شيء آخر أيضًا خطير وهو الحرص على المظهر في أمور التدين وإهمال الباطن والجوهر، مع أن كل العبادات في الإسلام تهدف إلى تقوية الصلة باللَّـه تعالى وإجلاله والفرح بقربه.. ولا ننسى إلى جانب هذا أن أكبر عالِمين نالت أقوالهما وأدبياتهما رضا السلفية المعاصرة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كان موقفهما من (الصوفية) موقفًا تفصيليًّا،

وليس مجملًا، كما أن كِلَا الرجلين كان على مستوى السلوك الشخصي شديد الاهتمام بالمعاني التي يهتم بها المتصوفة.

وقد حدث لكثير من الصوفية مثل ما حدث لجمهور السلفيين، لكن على نحو معاكس؛ حيث صار ذم السلفية (أو ما يطلقون عليه « الوهابية ») لديهم جملة وتفصيلًا وإلحاق شتى التهم بها شيئًا معتادًا ومألوفًا، وقد حرموا أنفسهم بذلك من أمور جوهرية جدًّا في التدين واتباع المنهج الرباني القويم، وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن يقوم أولو البصيرة والرؤية النافذة من كلا الاتجاهين بمراجعة تامة لذلك؛ كي تستعيد السلفية ما فقده كثير من شبابها من الألق الروحي والاهتمام بتزكية النفس، وكي يستفيد الصوفية من الإضافات الكبيرة التي قدمتها السلفية للأمة على مستوى العقيدة وتمحيص الأدلة والالتزام بالأصول واحترام قول الفقيه

د - إذا عدنا إلى الوراء عشرين سنة، فسنرى أن النشاط التربوي كان هو النشاط الفطري والمباشر الذي يمكن لأبناء الصحوة القيام به إلى جانب النشاط المسجدي، أما النشاط الإعلامي فقد كان محدودًا بسبب قلة المتخصصين فيه من الإسلاميين وبسبب تكلفته العالية، والأهم من هذا وذاك صعوبة الحصول على أذونات بإنشاء جرائد أو مجلات، وقد تغير هذا اليوم، فقد صار النشاط الإعلامي على (النت) شبه مجاني، وهناك إمكانية كبيرة لإنشاء إذاعات وقنوات فضائية بتكاليف ليست باهظة، وهذا - في نظري - أثَّر كثيرًا في الأنشطة التربوية؛ حيث إن من الملاحظ انصراف أعداد كبيرة من مشاهير الدعاة إلى الاهتمام بالخروج في الفضائيات، كما نرى كثيرًا من مشاهير الصحويين اتجهوا إلى العمل في المؤسسات الإعلامية الإسلامية الناشئة، وصرنا نسمع في بعض أوساط الصحوة عن (صناعة النجوم)، فالذين يظهرون في الفضائيات، ويتحدثون في الإذاعات يحصلون على شهرة سريعة وواسعة، ولا يملك العمل في المجال التربوي ذلك.. كما أن ثمار الجهد التربوي قد لا تظهر إلا بعد حين على خلاف ما يتم في المجال الإعلامي.

إنني لا أخفي ابتهاجي بالتقدم الذي يحدث في مجال الإعلام الإسلامي والمحافظ، لكن علينا أن نتذكر أن الإعلام ينشر المعرفة ويحسِّن وعي الجماهير، لكنه لا يحسِّن السلوكيات، ولا يغير العادات، ومن ثم فإن ازدهار الإعلام لا يجوز أن يكون على حساب التربية في حال من الأحوال.

هـ - يلاحظ على نحوٍ عامٍّ تراجع الاحتساب في الجهد المبذول من أجل الدعوة والتربية والتعليم، فقد نحتاج إلى من يشرف على تربية عشرة من أطفال الحي، ويكون لدينا طلاب في الجامعات ومدرسون ومتعلمون ممن يصلحون لذلك، ثم لا يتقدم منهم أحد لذلك مع أهميته وعظم المثوبة عليه، وهذا قديعود إلى ضغوط العيش المتزايدة، وحاجة معظم الناس إلى الوقت كي يعملوا في شيء يوفرون من خلاله مصروفات لأسرهم، وهذا تعليل جزئي في الحقيقة؛ إذ ينبغي أن نعترف أن العولمة قد زادت في طموحاتنا، وجعلتنا بالتالي أكثر دنيوية، وحين تصبح الطموحات واسعة جدًّا، فإن الفقراء والأغنياء يستوون في شدة طلب المال والعزوف عن التطوع !

الخلاصة:

نحن الصحويين مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالاهتمام بالتربية الروحية والاجتماعية، وإعداد الجيل الجديد للحياة من أفق رؤيتنا الجديدة للفرص المتاحة والتحديات الماثلة.

٤ - قصور في فهم الواقع:

لا ريب أن لدينا مثقفين ممتازين واعين بتعقيدات الواقع الإسلامي ومدركين لما يجب القيام به، لكن هؤلاء لا يشكِّلون سوى نسبة ضئيلة بين صانعي الخطاب الإسلامي والساعين في طريق الدعوة، ومن واجبي قبل كل شيء أن أقول: إن فهم الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي لم يكن في يوم من الأيام سهلًا، وكل ما يقال في ذلك عبارة عن اجتهادات، ووجهات نظر، ولا أريد أن أتوسع في شرح الأسباب التي تجعل من فهم الواقع تحديًا قائمًا ومستمرًّا، لكن أود أن أقول: إن الخطأ في فهم الواقع وتحليله شيء مشترك بين الصحويين وغيرهم، لكن بما أننا نتحدث عن الصحوة، فإننا نفرد الحديث لقصورنا وخطأنا.

وقد يقول قائل: إذا كان فهم الواقع صعبًا فلماذا نلوم أنفسنا؟

الجواب هو: أن لدينا صورًا صارخة من الجهل بالواقع، على الرغم من أن المنهج الرباني الأقوم قد ملَّكنا الكثير من الأدوات التي تساعدنا في ذلك.

وقبل أن أتحدث عن قصورنا في فهم الواقع أود أن أقول: إنه كلما كانت الظاهرة التي نريد فهمها أكبر كانت المهمة أصعب، ففهم الواقع السياسي والاجتماعي... لمدينة

أسهل من فهم واقع دولة، وفهم واقع دولة أسهل من فهم واقع منطقة أو قارة؛ ولهذا فإننا حين نتحدث عن الواقع الإسلامي العام نقع في الكثير من التعميم، والكثير من الوهم والخلط

ومن وجه آخر فإن ثورة الاتصالات الحديثة وتداخل مصالح الأمم والدول جعل عزل ما هو محلي عما هو إقليمي وعالمي أمرًا في غاية الصعوبة، وقد دلت الأزمة المالية التي ضربت العالم مؤخرًا، كما دلَّ ما يسمى الحرب على الإرهاب وتجفيف منابعه على شيء واحد هو ضرورة فهم المحلي في ضوء العالمي، وضرورة حساب تأثير الإقليمي والعالمي عند الإقدام على أي عمل كبير أو خطوة حاسمة، وإن تجاهل هذا المعنى سيعني دائمًا القليل من الإنجازات والكثير من المآسي.

من مظاهر قصور فهم الواقع:

لا أستطيع في كتاب يراد له أن يظل متوسطًا في حجمه تناول كل ما أظن أنه يشكِّل قصورًا في إدراك الواقع وتحليله، **مما يدفعني إلى تقديم بعض النماذج عبر المفردات التالية:**

أ - **التخمين عوضًا عن البحث:** حتى لا نقسو على الصحوة فإن عليَّ أن أشير إلى أن هذه المشكلة موجودة لدى معظم الشعوب الإسلامية؛ لأنها مشكلة مرتبطة بالتخلف؛ حيث إن البلاد المتخلفة تدرك مشكلاتها عن طريق التخيُّل والتخمين، أما البلاد المتقدمة فإنها تدرك مشكلاتها عن طريق البحث والإحصاء والاستقصاء المنهجي لكن بما أن المؤسسات الصحوية والجماعات الدعوية أخذت على عاتقها النهوض بالأمة، فإن عليها أن تمتلك من الأدوات والمنهجيات ما لا تملكه الأمة، وإلا فكيف ستقوم بدورها؟!

الأرقام تتحدث دائمًا عن الواقع بلغة أوضح وأدق من الكلام الإنشائي الذي نستخدمه في المناسبات العامة، ولكن الأرقام تظل قابلة للتزوير دون أن يشعر أحد؛ ولهذا فلا يكفي أن تستخدم أرقامًا ينتجها الآخرون، وإنما عليك أن تقوم بالمسوحات الإحصائية التي توفر لك الأرقام التي تحتاجها في عملك، وهنا تكمن مشكلة كثير من الجمعيات والجماعات والمؤسسات والدوائر الإسلامية الرسمية والشعبية؛ إذ إن من المتوقع أن يكون لها مراكز بحوثها الخاصة التي تقوم بالدراسات والبحوث التي

تمكِّنها من تصور الواقع على ما هو عليه، ولا سيما ما يتصل ببؤر اهتماماتها وأنشطتها، فالجمعيات الخيرية - مثلًا - تحتاج إلى أرقام معبرة عن حجم مشكلات الفقر والبطالة والمرض، والمؤسسات الدعوية والثقافية تحتاج إلى أرقام تكشف لها واقع الاستقامة والانحراف في المجتمع، وما يكشف عن مشكلات الشباب، وما يتصل بالقراءة والكتابة والأمية... كما تحتاج إلى أن تقيس التطورات الثقافية المتصلة بالطموحات الجديدة وبالعادات والتقاليد الموروثة...

لكن من المؤسف أن نقول: إن معظم المؤسسات الصحوية ليس لديها أي باحثين، ولم تقم بدراسات توفر لها أي معطيات رقمية موثوقة؛ ولهذا فإن خبراتها بالواقع واتجاهات الناس والتطورات التي تطرأ على أخلاقهم وسلوكياتهم... مضطربة وغائمة، وصارت التصورات تابعة للأمزجة، فالمتفائلون من أبناء الصحوة يرون الجوانب المشرقة من حال الأمة، ويتحدثون عنها باستفاضة، والمتشائمون يرون نقاط الضعف والانكسار ويبثون من خلال الحديث عنها اليأس والقنوط! المطلوب من كل مؤسسة صحوية أن يكون لديها مركز بحوث يقوم بخدمة أنشطتها، ولو كان ذلك المركز مكونًا من موظف متفرغ وموظفين متعاونين أو عاملين بدوام جزئي، وإلا فإننا نظل كمن يسدد على هدف متحرك، أو كمن يرمي دون أي تسديد!

ب - **الانشغال بإنجازات السلف:** نحن نحترم كل جهد يُبذل في خدمة هذا الدين وهذه الأمة، لكن علينا أن ندرك أننا أبناءُ القرن الخامس عشر الهجري، وأن الناس قد ملُّوا من الحديث عما قام به الآباء والأجداد، كما ملُّوا من الحديث عن الخصائص والميزات التي حصلنا عليها بسبب أننا مسلمون، الناس في الداخل والخارج يتحدثون، أنهم جميعًا يريدون أن يروا إنجازات المنهج الرباني على أيدي أبناء الصحوة المعاصرة، ويريدون لمس المكاسب التي يوفرها التدين لأبنائه في عصرنا الحاضر، وفي هذا السياق نجد - مثلًا - أنه كلما تطرق الحديث إلى (المرأة)، وما يتصل بها من شؤون وشجون قام من يدبِّج لك خطبة عصماء عن أحوال المرأة في الجاهلية وكيف حررها الإسلام، وأعاد إليها كرامتها المسلوبة، وكلما قام من يتحدث عن حقوق الإنسان المصونة لدى الأمم الصناعية المتقدمة؛ قام من يحدثك عن حقوق الإنسان في الإسلام، وكيف أنه هو الذي وضع أسس التفكير بتلك الحقوق، وأن تلك الحقوق أوفر وأعظم من الحقوق التي بلورتها هيئات الأمم المتحدة..

إن مناوئي الصحوة ينظرون إلى تناول الأمور بهذه الطريقة على أنه نوع من الهروب إلى الأمام من أجل تجاوز واقع إسلامي رديء المطلوب اليوم ليس التحدث عن تكريم الإسلام للإنسان، فهذا من المسلَّمات التي ينبغي أن نفرغ من الحديث عنها، وإنما المطلوب التحدث بوضوح وقوة عن حال حقوق الإنسان في العالم الإسلامي والتحدث عما يتعرض له الإنسان المسلم من إهانة بالغة وظلم شنيع في بلده، وعلى أيدي أبناء جلدته. إن الآخرين يقولون: إن المرأة في العالم الإسلامي اليوم تذوق الويلات بسبب تعسف الآباء والأزواج، وبسبب التقاليد البالية التي لا يقول بها عقل ولا نقل، وإن علينا أن نصغي إلى ذلك، ونحدد موقفنا منه سلبًا أو إيجابًا، ثم نبادر إلى عمل ما يجب عمله.

ج - **رجال إطفاء يقولون:** إن البنية العميقة لعقلية الإنسان البدائي (الخام) تقوم على الحذر من الأمور الطارئة والحادة، وحين يرتقي الإنسان فإن التدريب العقلي الذي يظفر به يحفزه على الحذر من المشكلات المستمرة والتغيرات البطيئة، وإذا كان هذا الكلام صحيحًا - وأعتقد أنه صحيح - فإن كثيرًا من أنشطة الصحوة مرتبط بالأمور الصغيرة الطارئة، فأنت ترى أن (إعلام الصحوة) كثيرًا ما يكون مشغولًا برد الفعل على قرار اتخذته الجهة الفلانية، أو تصريح صدر عن المسؤول (الفلاني) أو مقال كتبه العلماني الفلاني، أو فتوى شاذة منقولة عن فلان من العلماء، ومع أن مجابهة الشرور مطلوبة؛ لأن السكوت عنها يشجِّع على المزيد منها، لكن علينا أن نسأل أنفسنا عن مواقفنا ومبادراتنا تجاه القضايا الكبرى في المجتمع وتجاه التغيرات البطيئة التي تفتك به، وهذه القضايا والتحديات منها ما هو ظاهر للعيان، ومنها ما هو دقيق، **ولعل منها الآتي:**

- انتشار الكذب والرشوة والتحايل على النظم السارية.

- الاهتمام الزائد بالشأن الشخصي لدى معظم الناس، وانحسار نسبة المهتمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء وتضاؤل مساحة الطبقة الوسطى.

- انخراط المزيد من الناس في طريقة العيش التي يتبعها الغرب دون تمييز بين الجيد والرديء.

- تجذر معنى الاستمتاع إلى ما لا نهاية في نفوس كثير من الناس وميل الطموحات والتطلعات إلى أن تصبح أكثر دنيوية.

- انتشار العنف في صفوف بعض الصحويين وعدم القدرة على اتخاذ موقف واضح وقوي منه من لدن الباقين.

- تعثر عمليات الإصلاح السياسي في معظم البلدان الإسلامية.

- تفكك الأسر وارتفاع نسبة الطلاق.

- تدهور التعليم في كل مراحله.

- تراجع الاهتمام بالعربية ونشوء أجيال لا تحسن استخدامها، وتنامي ضغوط اللغات الأجنبية والعاميات عليها.

- ارتفاع نسبة العداء للإسلام والمسلمين في الغرب وصدور المزيد من القوانين الضاغطة على الجاليات الإسلامية هناك... أنا لا أريد حصر كل التحديات والهموم، كما لا أريد أن أقول: إن الصحويين غافلون عن كل هذه الأمور، لكن الذي أريد قوله بالتحديد: إننا نتكلم في هذه الأمور كلامًا عائمًا يفتقر إلى الفهم العميق وإلى التركيز، وإنني أعتقد أن الكلام عن كل شيء يشبه عدم الكلام؛ ولهذا فإنه لا بد من ترتيب المشكلات وتحديد ما يمكن تسميته (المشكلات المفاتيح) أي المشكلات التي يساعد حل كل واحد منها على حل عدد من المشكلات المرتبطة بها ، إننا حين نستجيب بحماسة بالغة للرد على مقال مغرض أو قرار متعسف.. نصبح ألعوبة في يد الآخرين؛ حيث إنهم مع الأيام يعرفون كيف يجعلوننا نستهلك طاقاتنا في أمور فرعية، مما يجعلنا ننصرف عن الخطوط الاستراتيجية التي نعمل عليها.

وسيكون لنا عودة إلى هذه المسألة، بعون اللَّـه تعالى.

د - التنافس على النفوذ: من الثابت أن الناس حين يعيشون في مكان واحد، فإنهم يكونون في حاجة إلى شيئين: التعاون والتنافس، والحد الأدنى منهما يتوافر في العادة بشكل طبيعي وعفوي من جراء تراكم الخبرة الاجتماعية، أما الصحي والمثمر منهما فيحتاج إلى وعي إضافي وإلى هندسة ومتابعة، وقد وضَّح لنا ربنا - جل شأنه - أن (التدافع) عامل في إشاعة التوازن والصلاح ودرء الفساد، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

مشكلة كثير من الصحويين أنهم لا يشعرون أنهم منخرطون في عمليات من التنافس والتدافع المستمر على عدد من الصعد، وبالتالي فإنهم لا يهتمون بفهم أبعاد ذلك التنافس

وتحليله وإدارته، وهذا يجعلهم يخسرون الكثير من المنافسات التي يمكن أن يربحوها بسهولة

في البداية يكون من المهم أن ندرك أنه لا مجال للتخلص من التنافس والصراع بين الدعاة أنفسهم، وهذا من سنن اللَّـه تعالى في الخلق، فأبناء المهنة الواحدة، والنشاط الواحد يتنافسون فيما بينهم على كسب الزبائن والأسواق، والدعاة أيضًا يتنافسون على كسب قلوب الناس وعلى الاستحواذ على المساجد والمنابر وبعض مناصب القضاء والفتيا، بالإضافة إلى التنافس على كسب قلوب الأثرياء الذين يمكن أن يموِّلوا المشروعات الدعوية... إن عدم إدراك هذا جعل كثيرًا من قيادات الصحوة والدعاة يقعون في غيبة إخوانهم وفي تزهيد الناس بهم من حيث لا يشعرون، بل إن بعضهم يستعين بالحكومات على إخوانهم وزملائهم في العمل الدعوي، ولو أنهم كانوا على وعي بأنهم فعلًا متنافسون فيما ذكرناه لتحرز كثير منهم عن ذلك.

الصحويون في صراع وتنافس أيضًا مع الاتجاهات الأخرى من علمانيين وليبراليين ويساريين وقوميين... وهذا التنافس طبيعي جدًّا، لكننا لا نديره بطريقة صحيحة في كثير من الأحيان.

ملاحظات في هذا الشأن:

- اعتماد سوء الظن أساسًا في التعامل مع بعض الأشخاص الذين عُرفت عنهم أقوال أو مواقف منافية للشريعة أو معادية للصحوة، مما يجعل شباب الصحوة يسقطونهم إسقاطًا تامًّا، ويتخذونهم عدوًّا دائمًا.

- تشويه الخصوم ووصفهم بما ليس فيهم، ويتم هذا من خلال التعميم في الوصف، فتجد من الصحويين من يجعل اليساري مثل الشيوعي.

- الاستعانة على الخصوم بالحكومات في بعض الأحيان، وهذا غير سديد، فشرف الخصومة الثقافية يقضي أن نقارع الحجة بالحجة والبحث بالبحث والمقال بالمقال... وبعض المعادين للصحوة يستعدون أيضًا الحكومات على رجال الدعوة، وهو أيضًا خطأ.

- بعض الصحويين لا يعرفون روح العصر الذي يعيشون فيه، وبعضهم يتكلم وكأنه الوحيد في الساحة، وبعضهم يتحدث بمصطلحات غير مفهومة، لكثير من الناس، ولعل الفتاوى الشاذة تشكل نموذجًا صارخًا على كل ذلك.

إن المتربصين بالصحوة كثر، وإن أي كلمة تقال تنتشر وتشيع على نحو يجعل تفسيرها أو تصحيحها أمرًا في غاية الصعوبة، وكما قال أحد الباحثين، من أن (الإنترنت) جعلت التوبة غير ممكنة؛ حيث إنك إذا تراجعت عن رأي أو فتوى، فإنك لا تستطيع إسقاطه من الشبكة.

الصحويون في صراع وتنافس مع حكوماتهم، والحقيقة أن هذا ليس خاصًّا بهم؛ حيث إن العلم يؤسس لصاحبه سلطة، كما يؤسس النجاح الإعلامي والدعوي والاقتصادي لأصحابه سلطات جديدة، وهذه السلطات تدخل في كثير من الأحيان في نوع من المنافسة مع (السلطة الزمنية) وهذه المنافسة نابعة من أن من طبيعة الحكومة - أي حكومة - السعيَ إلى الاستحواذ على الفضاءات، والتسيير لكل ما يمكنها تسييره؛ ولهذا فإن تاريخ كل الأمم مشحونٌ بأشكال من النزاع بين أهل العلم وكل من له علاقة بالإصلاح وكل ساعٍ إلى التغيير وبين كل أو بعض المسؤولين عن تدبير أمور البلاد والعباد، **ويتجلى عدم وعي أعداد غير قليلة من الصحويين بطبيعة المدافعة على هذا الصعيد في عدد من الأمور، منها:**

أ - بعض المنتسبين للصحوة يستغربون من وجود أي مساحة فاصلة بين مواقف الدعاة والمثقفين عامة وبين مواقف حكوماتهم؛ لأنهم يعتقدون أن على الجميع أن يكونوا يدًا واحدة وعلى قلب رجل واحد، ما داموا يعبدون ربًّا واحدًا، ويؤمنون بنبيٍّ واحد... وهذا من عدم إدراكهم لروح التنافس وحتميات الصراع التي أشرنا إليها، **لا شك في أن علينا جميعًا التأسيس لإجماع وطني حول كل الثوابت الوطنية وكل ما يساعد على رعاية المصالح العامة، ولكن من وجه آخر لا ينبغي أن يُظن أن كل شكل من أشكال التنافس بين قيادات الأمة ينطوي على شر، فهذا ليس بصحيح؛ حيث لا يكون الوضع صحيًّا إذا ساد الوفاق التام في أي بلد؛ لأن ذلك الوفاق يكون مزيَّفًا** وغير معبِّر عن الواقع

ب - قسم آخر من الصحويين جعلوا علاقاتهم مع حكوماتهم في غاية التوتر؛ وذلك لأنهم جعلوا من أنفسهم ما يشبه الحزب المعارض، فهم يذيعون الأخطاء، ويغضون الطرف عن الإنجازات والأشياء الجيدة، وهذا ينافي الحرص على استقرار البلاد، كما ينافي القيام للَّه تعالى بالقسط والعدل.

ج - فريق ثالث من الصحويين وقفوا موقفًا مضادًّا حين جعلوا من أنفسهم أبواقًا في الثناء على كل ما تقوم به حكوماتهم ناسين الميثاق الذي أخذه اللَّـه على أهل العلم من تبيان الحق، وناسين ما على المسلمين عامة من واجب النصح ونشر الخير ومحاصرة الشر.

إن العالِم والداعية والمصلح والمثقف يفقد معناه وتميزه حين يصبح أداةً في يد هذه الجهة أو تلك.

د - لا يخفى أخيرًا أن بعضًا ممن يُحسَبون على الصحوة استخدموا السلاح في تغيير الأوضاع في بلادهم، وهذا خطأ كبير للغاية، وعواقبه وخيمة على الجميع، ولن يؤدي إلى أي نتيجة، كما أشرت من قبل.

٥ - عقدة المؤامرة:

يؤسفني القول: إن الصحويين أكثر التيارات الإصلاحية والاجتماعية إيمانًا بنظرية المؤامرة، فمجالسنا تعج بالشكوى من تآمر العالم علينا، ولا سيما الغرب، وتشكل أمريكا وإسرائيل رأس الحربة في ذلك.

أنا ابتداءً لا أنفي أن هناك من يمكر بنا، ومن يعمل من أجل إضعافنا، لكن مساهمة ذلك في تخلفنا لا تزيد على(٢٠٪) ، لكن بعض الصحويين بلغ بهم عدم فهم الواقع مبلغًا جعلهم يظنون أن كلَّ أو جلَّ مآسينا هو بسبب الجهود الجبارة التي تُبذل في الخفاء من أجل أن نظل متخلفين ومنقسمين وفقراء... ولديهم دائمًا شواهد تاريخية بعيدة وقريبة، ولديهم مقولات منقولة عن بعض سياسيِّي الغرب تؤيد ما يعتقدونه، وهذا من ضعف التحليل للواقع، ومن ضعف الفهم لسنن اللَّـه تعالى في الخلق. قد يعتقد بعض الأعداء فعلًا أن زوالنا من فوق الأرض هو حلم جميل لكنهم لا يملكون الأدوات لتحقيق ذلك الحلم، وأنا أريد من الذين يرون أننا ضحايا مؤامرة كبرى أن يجيبوا على هذه التساؤلات: ما علاقة الغرب والشرق بانهيار الدولة العباسية؟

ما علاقة الأعداء بأعداد هائلة من المسلمين لا يصلُّون صلاة الفجر في وقتها، وأعداد هائلة لا يقرؤون في السنة كلها ولا آية واحدة من كتاب اللَّه؟ وما علاقتهم بمدرس لا يحضِّر درسه، كما ينبغي، وبتاجر يكذب في تجارته، أو يغش السلعة التي يعرضها للبيع؟

إن من سنن اللَّـه تعالى في الخلق أنه لا يستطيع أحد أن يفعل بالآخرين أسوأ مما

يمكن أن يفعلوه بأنفسهم، وقد ألح القرآن الكريم على هذا المعنى إلحاحًا شديدًا؛ حيث قرَّر في مواضع كثيرة أن الأمم التي أُبيدت لم تتم إبادتها بسبب غزو أو عدوان خارجي، وإنما أبيدت بسبب تراكم أخطائها وخطاياها، وهذا ما يحدث لنا بالضبط، وما أجمل قول اللَّـه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٦ - الإسراف في استخدام المقولات الجاهزة:

تحاول عقولنا دائمًا التشبث بشيء يسعفها في التفكير، وتشكل النصوص والأمثال والحكم وأقوال أهل العلم العمود الفقري لذلك، والمشكل الذي يواجهنا هو ما سماه الأصوليون (تحقيق المناط) أي تنزيل المقولات والحِكَم على الواقع المعيش؛ لأن الصواب في ذلك يتطلب معرفة جيدة بالواقع، وبما أن الواقع شديد التعقيد، فإن المقولات الجاهزة - والتي تتمتع في الأصل بإحكام شديد - تبدو وكأنها تبسِّط الأمور إلى حدِّ التسطيح، ولو أردنا استعراض تلك المقولات لطال بنا الكلام، **لكن حسبي أن أستعرض بعضها، وذلك من نحو:**

- لو تركَنا الغربيون وشأننا لكنا بألف خير.
- لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.
- العمل الجماعي هو الذي يثمر، والعمل الفردي تضييع للوقت.
- بلاء المسلمين في حكامهم.
- أعطني ما يكفي من المال، وخذ ما شئت من التحضر.
- إذا لم يتحد المسلمون، فلن يحققوا أي نصر.
- لا مستقبل لنا إلا إذا ظفرنا بقائد كصلاح الدين.
- الإسلام هو الحل.
- لن يتركوك تفعل ما تريد.

يزدهر الاتكاء على المقولات الجاهزة في حالات الركود الحضاري لدى الأمة، وفي حالات الكسل الذهني لدى الأفراد، كما يزدهر الاستناد إليها لدى الذين يخضعون

للرؤية الأحادية؛ حيث إن إصلاح أحوال أمة كبيرة كأمتنا لا يمكن أن يتم من خلال توجُّه دولة أو حضور قائد... كما أن الذين يُكثرون من ترديد تلك العبارات يريدون للتاريخ أن يعيد نفسه، ومَا هو بفاعل بسبب التغيرات الفيزيائية والكيميائية والتغيرات النفسية، والاجتماعية التي تعتري الناس والمحيطَ الذي يعيشون فيه

هذه المقولات تنقسم إلى قسمين:

- قسم منها صحيح المعنى في المجمل وذلك مثل: (الإسلام هو الحل) ومثل (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) .

- وقسم خاطئ في مجمله، ويمكن أن يصدق على حالات معينة، وذلك مثل باقي المقولات التي سقتها.

وسأحاول تحليل مقولة واحدة من كل قسم حتى يتضح ما أريده:

أ- يقول الإمام مالك بن أنس - رحمه اللَّـه -:« لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» . وأعتقد أن معنى كلام الإمام هو أن إصلاح حال أمة الإسلام في أي زمان ينبغي أن يستند إلى عين الأصول التي كانت سائدة وقت نشوء الأمة، وإلى عين المبادئ والقيم التي تمسك بها الناس في صدر الإسلام من قوة الإيمان والصدق والأمانة في التعامل والتراحم والتسامح والاحتكام إلى شريعة اللَّـه تعالى في المنشط والمكره... وأعتقد أننا لا نختلف في أهمية وجود هذه الأمور في حياتنا اليوم، لكن كل ما ذكرناه هو في نهاية المطاف عبارة عن مبادئ وأخلاق وسلوكيات، وليست أساليب وأدوات، تتطلبها معالجة ظروف في غاية التعقيد، وعلى سبيل المثال، فإن بعض المجتمعات المسلمة قد فسد كثير من أبنائها بسبب ارتفاع نسبة البطالة فيهم حتى تجاوزت الستين في المئة، كما أن كثيرًا منها تعاني من الاستبداد والجهل وضعف التصنيع والاحتكام إلى السلاح في فضِّ النزاعات.. هذه المشكلات لم تكن في حياة سلف الأمة بالحدة الموجودة اليوم، فكيف يمكن أن نقتبس من تجارب حياة بسيطة للغاية لإصلاح حياة معقدة للغاية، ونحن نعرف أن من سنن اللَّـه تعالى في الخلق أنه لا تتسع مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة ؟

ب - إذا لم يتحد المسلمون فلن يحققوا أي نصر، هذه المقولة تتردد على أفواه كثير من المتحمسين للوحدة الإسلامية، فهم يرون أن تفرق المسلمين وعدم ظفرهم بقيادة سياسية واحدة هو سبب هزائمهم أمام أعدائهم، وهو سبب انكسارهم الحضاري...

نحن في البداية نؤمن بأن الوحدة خير من الفرقة، وأن تعاضد المسلمين على الخير مطلب شرعي، لكن من المهم أن ندرك الآتي:

عدد الدول الإسلامية يتجاوز الخمسين، ونحو من ثلث المسلمين يعيشون بوصفهم أقليات في دول غير الإسلامية، والوحدة بين هذه الدول المنتشرة في أنحاء الأرض شبه مستحيلة من الناحية العملية.

في صدر الإسلام كان وجود (الإمبراطوريات) أمرًا مألوفًا، أما اليوم فإنه غير وارد إطلاقًا، ونحن نشاهد مدى ارتباك أمريكا اليوم في انسحابها من العراق وأفغانستان بعد أن سعت إلى تثبيت نفوذها في هاتين الدولتين، ثم إن بين الدول الإسلامية تباينات ثقافية واقتصادية كبيرة مما يجعل دمج شعوبها في كيان واحد شيئًا كالخيال.

إن المشكل الأساسي الذي يعاني منه المسلمون ليس التفكك السياسي على مستوى العالم، وإنما المشكل هو التخلف الضارب أطنابه في كل مكان، وفي كل المجالات.

لا ينبغي أن نتوهم أن الصراع الأساسي بيننا وبين الآخرين هو صراع عسكري، ولهذا فإنه يحتاج إلى حشود من الجيوش الجرارة... إن جوهر الصراع حضاري، وإن في إمكان دولة صغيرة متحضرة ومتعلمة ومستقرة أن تعيش بسلام وبكرامة، وهذا ما نلمسه في دولة مثل ماليزيا

التفكير بالوحدة الإسلامية الكاملة - شبه المستحيلة عمليًّا - صرف أذهاننا عن التفكير فيما هو ممكن من تعاون الدول الإسلامية مثل إقامة سوق إسلامية مشتركة، ومثل تفعيل الاتحادات والمؤسسات الإسلامية القائمة، ومثل توسيع التشاور بين القيادات السياسية.

إذن العبارة التي ناقشناها تميط اللثام عن سذاجة شديدة في فهم المعوقات الجاثمة أمام الوحدة السياسية للعالم الإسلامي. أنا لست ضد رفع الشعارات، كما أنني لست ضد الاستئناس ببعض المقولات، لكنني ضد السطحية في تنزيلها على الواقع.

٧ - التضامن الآلي:

على مدار التاريخ كان ولاء الفرد المسلم لمجموع أمة الإسلام، وكان شعوره بمصائب إخوانه المسلمين في أنحاء الأرض واضحًا، فعقيدة الإسلام تُوحِّد مشاعر المسلمين حول الكثير من الأمور؛ ولهذا فإنه لم يكن مستغرَبًا أن يهب كثير من الشباب لنصرة

إخوانهم في أفغانستان والشيشان والبوسنة وغيرها... ويمكن القول: إن جماهير عريضة من أبناء الصحوة قد قدَّموا أشكالًا من الدعم - وبعضهم لا يزال يفعل ذلك - للحركات الجهادية التي قامت في تلك البلاد، وكان الدافع الأساسي لأولئك الداعمين هو تبرئة الذمة والخوف من خذلان إخوة الدين وهم يواجهون أشكالًا من الظلم والعسف...

- والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كلما اشتبكت مجموعة إسلامية مع حكومتها الملحدة أو العلمانية أو المدعومة من عدو خارجي، ثم طلبت النصرة من المسلمين، كان على المسلمين المجاورين لها أن يهبُّوا لنصرتها بأنفسهم وأموالهم، وإذا تقاعس المجاورون انتقل التكليف إلى من يليهم مهما بعدت ديارهم، وإلا أثموا جميعًا؟

-ثم هل يجب على كل من غزا العدو ديارهم أن يستخدموا على نحو فوري السلاح لصده وإلا أثموا، أو أن ذلك يخضع لتقدير ما يترتب على المقاومة من مصالح ومفاسد، كما لو غلب على ظن المدافعين عن البلد أن مدافعتهم ستؤدي إلى استئصالهم أو إلحاق أفدح الأضرار بهم وبذراريهم دون أن يتمكنوا من صد العدو أو إيقاع النكاية به؟

هاتان المسألتان تتطلبان من أهل الاجتهاد والفتيا الإجابة عليهما؛ لأنهما تشكلان شيئًا مهمًّا في القضية التي نتحدث عنها، وإن كنت أميل إلى عدم تأثيم الممتنعين عن تلبية نداء إخوانهم وعدم وجوب صد العدو على نحو مباشر إذا كان الصد سيؤدي إلى ما أشرنا إليه، ويظل على أهل البلد أن يعدُّوا العُدَّة لإخراج العدو، وأن يبحثوا عن الأدوات المجْدِية التي يمكن أن تساعد على ذلك. وبناءً على هذا فإني أرى أن الذين جنَّدوا الشباب وأرسلوهم إلى المناطق الساخنة في العالم الإسلامي لم يكونوا على صواب؛ لأنهم زجوا بهم في ساحات لا يعرفون عنها شيئًا، كما أن قتال الأعداء من غير رؤية سياسية واضحة كثيرًا ما يؤدي إلى مآسٍ عظيمة، وقد حدث شيء من ذلك في المناطق التي أشرت إليها، فقد قُتل كثير من الشباب المسلم، وأُتلف الكثير من الأموال، ولا يعرف أحد المكاسب التي حصل عليها المسلمون من وراء ذلك، وفيما حدث للمجاهدين العرب في أفغانستان والبوسنة عبرة لمن يعتبر.

حين يستنجد المسلمون في بلد، فإن علينا أن نقدم لهم النصح والمشورة، وربما كان علينا أن ندعم التعليم لديهم، أو نرعى الأيتام، والأرامل... أما إرسال الشباب والسلاح،

فهذا في نظري يحتاج إلى الكثير من الأناة والتمحيص، وسيختلف الأمر لو أن حاكمًا مسلمًا قرر خوض الحرب إلى جانب إخوانه، وحبذا أن تكون هناك مرجعية إسلامية عُليا تجمع بين الشرعيين وأصحاب الخبرة السياسية والاستراتيجية لتقديم الفتوى والمشورة في مثل هذه الأمور حتى يكون الناس على بيِّنة من أمرهم.

٨ - المبالغة في تقدير المظهر:

يظل الوعي في حالة من الارتباك المستمر تجاه اتخاذ موقف معتدل في مسألة الشكل والمضمون والمظهر والجوهر، وعلى مدار التاريخ كان الميل إلى المظهر أو الشكل هو الغالب؛ وربما كان ذلك لأن إدراك قيمة المظهر تتم بطريقة أوضح وأسرع من إدراك قيمة الجوهر، فهل جنحنا معاشر الصحويين إلى المظهر واحتفلنا به أكثر مما فعلناه مع الجوهر، هذا ما أراه، **وهذا توضيح سريع لهذه القضية:**

أ - اللحية وقصر الثوب وغطاء الوجه للمرأة، والتحرز من اختلاط النساء بمن لا يحلون لهن، والحرص على صلاة الجماعة، وما شاكل ذلك من الأمور الشكلية في نظر بعض الناس وتُتهم الصحوة بأنها اهتمت بها اهتمامًا يزيد على اهتمامها بالعديد من الأمور الجوهرية، وأنا أقول: إن كل ما تعلق به حكم شرعي فإنه لا ينبغي وصفه بأنه من القشور أو الشكليات أو الهامشيات، ولكن يعطى من التركيز والاهتمام ما أعطته الشريعة الغراء؛ إذ من الواضح أن أركان الإسلام ليست على درجة واحدة، ويقال مثل ذلك في الكبائر والمحرمات، فهناك حرام دون حرام، بل هناك كفر دون كفر، وشرك خفي وشرك ظاهر...

ب - من الواضح أن الصحوة قد ركَّزت فعلًا على مسألة المظهر تركيزًا ظاهرًا؛ حيث إن كثيرًا من الدعاة يتخذون من اللحية والتزدد على المسجد - مثلًا - مؤشرًا قويًّا على التزام المدعو وتحسُّن تدينه، كما أن الدعاة والداعيات يجعلون من ارتداء المسلمة للحجاب فاصلًا قويًّا بين مرحلتين: مرحلة الغواية ومرحلة الهداية، وبعض الداعيات يُقمن الحفلات ابتهاجًا بتحجب بعض الفتيات، وتثبيتًا لهن على الحجاب، ويذكِّرني هذا بما يفعله كثير من العامة في بلاد الإسلام حين ينظرون إلى ذهاب أي مسلم إلى أداء فريضة الحج على أنه بداية لحياة جديدة، حيث يستنكرون من أخطائه بعد حجه ما لم يكونوا يستنكرونه من قبلُ، ويطالبونه بالاتصاف بفضائل لم يكونوا يطالبونه بها!

إذا نظرنا في البحوث والدراسات الإسلامية المتصلة بالارتقاء بالمرأة - مثلًا - فإننا نجد أن ما يزيد على(٧٠٪) منها يركِّز على أمور محددة مثل الحجاب وشروط عمل المرأة ومسألة اختلاط الرجال بالنساء،أما الكتب والدراسات التي تهتم بكيفية الارتقاء بالمرأة لتكون زوجة مثالية ومربية فاضلة وداعية ناجحة وقائدة كبيرة في العمل الخيري والتطوعي.. فإنها قد لا تصل إلى (٣٠٪) وهذا يعني أن الصحوة فعلًا قد أعطت لبعض الأمور المتعلقة بالمظهر من الاهتمام أكثر مما ينبغي، وكان ذلك على حساب أمور جوهرية

ج - إننا حين نبالغ في تقدير المظهر نقع في عدد من الأمور غير الجيدة، منها:

- حدوث نوع من التقسيم للمجتمع على أساس غير جوهري، هذا ملتحٍ وهذا غير ملتح، وهذه محجبة، وهذه غير محجبة..، وبناءً على هذا التقسيم يحدث نوع من التعاطف بين المتشابهين، ونوع من النفور بينهم وبين غيرهم، مع أن لدى بعض غير الملتحين في بعض الأحيان من الورع والاستقامة والخيرية، ما لا تجده عند بعض من أطلقوا لحاهم، ويقال مثل هذا في الحجاب.

- تقديرنا المبالغ فيه للمظهر جعل المدعوين يتناغمون مع اهتمامنا؛ حيث صاروا يهتمون بالمظهر أكثر من الاهتمام بالجوهر، ونحن نعرف أن الآثار الواردة في تعظيم أمور مثل: خشية اللَّـه تعالى والصدق والأمانة والكرم والرحمة والحرص على الكسب الطيب... كثيرة للغاية، وهي تحتاج منا تركيزًا شديدًا؛ لأنها تمثِّل أمورًا مهمة للغاية في تدين المسلم وسلوكه الشخصي، وإن شباب الصحوة يحتاجون إلى من يرسِّخ هذه المعاني في نفوسهم حتى يركزوا عليها في خطابهم لعموم المسلمين.

- الاهتمام بالمظهر يجعل الذين تحلوا به يتكئون عليه في إظهار تميُّزهم على غيرهم، مما يدفعهم إلى إهمال بعض الأمور الجوهرية، وهذا ما لمسناه، فقد ترى ممن سمتهم التدين من لا يحضر إلى عمله في الوقت المحدد، ومن يسيء إلى زوجته ويظلمها، ومن يتعامل مع الناس بغلظة وخشونة، ومن يخون الأمانة.. بل قد رأينا ما هو أكثر من هذا، فنظرًا لأن اللحية - مثلًا - صارت رمزًا للتدين، فقد صار بعض أصحاب الأعمال يبحثون عن أصحاب اللحى كي يوظفوهم من أجل كسب ثقة الناس، وهذا موجود في الأعمال التي تعتمد على الثقة مثل تجارة العود والعسل وغيرها، وهذا من سنن اللَّـه تعالى في الخلق؛ إذ إن الشيء إذا اشتد عليه الطلب كثر استغلاله وتوظيفه بأشكال مختلفة

الخلاصة:

الاهتمام بالمظهر مطلوب، والاهتمام بالجوهر مطلوب، وحين نزن بموازين اللَّـه تعالى فإننا سنعطي كلًّا منهما ما يستحقه من التركيز والمتابعة.

٩ - العمل الجماعي: هل هو غاية؟

أنا هنا لا أتحدث عن العمل الجماعي المؤسسي، أي الجمعيات الخيرية والنقابات والاتحادات المهنية، وما شاكل ذلك، فهذه لا تثير في العادة أي جدل، وإنما أتحدث عن الانتماء إلى جماعة أو فئة لها اتجاه دعوي محدد، ولها شيخ أو رئيس، وبين أتباعها نوع من الترابط العاطفي الخاص، حيث رأينا من حماسة بعض الشباب والشيوخ لجماعاتهم ما يوحي بأن العمل مع جماعة هو فرض، ورأينا من حماستهم أيضًا لجماعاتهم ما يوحي أن العمل الجماعي هو شيء تعبدي لا تصح مناقشته مهما كانت أوضاعه، مما يعني أنه قد صار غاية في حدِّ نفسه بقطع النظر عن الظروف المحيطة به، وعن الآثار والعواقب التي تترتب عليه ! **وأود هنا أن أوضِّح الأمور التالية:**

أ - القول بحرمة الانتساب إلى أي جماعة إسلامية مهما كان وضعها بحجة أن ذلك يفرِّق كلمة المسلمين، وينشر بينهم التحزب والتعصب... قول غير معتمد عند أهل العلم، ولك أن تقول مثل هذا فيمن يرى أن العمل مع جماعة لنصرة الإسلام واجب شرعي، ولا أود مناقشة هذين القولين هنا .

ب - ابتليت الصحوة الإسلامية بالكثير من الأتباع الذين يتعصبون لجماعاتهم ويعطونها ما لا تستحقه من المديح والتعظيم، وقد وصل الأمر في بعضهم إلى حدِّ الادِّعاء بأن جماعتهم هي جماعة المسلمين، مما يعني أن من لم ينتسب إليها آثم بسبب مفارقته للجماعة! وهذا من الجهل بدين اللَّـه وبمدلولات النصوص، ومن الجهل كذلك بالواقع. في بعض الأحيان لا تجرؤ الجماعة على قول ذلك، فتقول: إنها ليست جماعة المسلمين، ولكنها الجماعة الأكثر أهلية لأن توصف بجماعة المسلمين، وهذا يعطيها المشروعية الأدبية لأن تلوم من لا ينتسب إليها، أو تنظر إلى موقفه على أنه نوع من الخطل في الرأي، وهذا أيضًا غير صحيح، فالعمل لدين اللَّـه أرحب من أن يُحصر في اجتهادات فئة أو جماعة.

ج - مما ابتلي به كثير من الناس المنتمين إلى جماعات وأحزاب(وهذه تشمل

الإسلاميين وغيرهم) التهوينُ من شأن العمل الفردي ولمز أصحابه، وهذا لا ينبغي، فقد رأينا من أفراد المسلمين من أحدث من التأثير الإيجابي في الحياة العامة ما يفوق ما أحدثته جماعة بأسرها.

د - بعض الدعاة وطلاب العلم كان لهم ارتباط بشيوخ وجماعات في مرحلة من المراحل، ثم انفصلوا عنهم، فولَّد ذلك لديهم نوعًا من الحساسية من كل الأعمال الجماعية، وصاروا يميلون إلى تمجيد العمل الفردي، وهذا غير سديد، **فمع اعتقادي أن العمل الفردي هو الأصل، إلا إن الجماعات الإسلامية قدمت - وما زالت تقدِّم - لأمة الإسلام خدمات عظيمة، وغيابها عن الساحة سوف يترك فراغًا هائلًا، وإذا وقعت مشكلة بين شخص وبين جماعته، فهذا لا يعني ضرورة أنه على الحق، وهي على الباطل، ثم إن من الظلم وضع كل الجماعات الإسلامية في كفة واحدة، فبينها تباين واضح على مستوى الالتزام بالضوابط العقدية والشرعية وعلى مستوى الأداء والنفع للناس**

هـ - الأساس في التكاليف الشرعية أنها تكاليف فردية، ولا يتحول التكليف الفردي إلى جماعي إلا بدليل واضح، وقد وجدت من يقول: إن مغالبة الجهد المنظَّم الذي يبذله أعداء الإسلام تتطلب جهدًا منظمًا مماثلًا له، وبما أن الدفاع عن الإسلام والمسلمين مطلوب شرعًا كان على الناس أن ينضموا إلى جماعات منظَّمة؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذا في نظري من التوسع في تطبيق هذه القاعدة العظيمة؛ حيث تم نقلها من أمور محدودة واضحة إلى أمور واسعة وعائمة، وعلى سبيل المثال فإنه إذا تصدى شخص لإنقاذ غريق، ووجد أنه لا يستطيع إنقاذه إلا بمساعدة ثلاثة أو عشرة من الناس كان على من حضر واستطاع المساهمة أن ينضم إلى ذلك المُنقِذ، ولكن لا يصح أن تطبق هذه القاعدة على نطاق واسع، كأن يقال: إن الأعداء قد أنشأوا مئات القنوات الفضائية التي تُفسد المسلمين وتسيء إلى عقيدتهم، وإن علينا أن ننشئ ما يكافئها من القنوات، وبما أن هذا يحتاج إلى جهود جماعية كبرى، فإنه يجب على الإعلاميين وأهل الثراء أن يتعاونوا للقيام بذلك وإلا أثموا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب،**إن هذا يوقع الناس في الحرج، ويجعل رؤية الشخص الواحد واجبة التنفيذ من قبل ألوف الأشخاص مع أن رؤيته اجتهادية تقديرية؛ حيث إن بعض المصلحين قد يرون أن مقاومة الغزو الفضائي قد تكون بمقاطعة قنواته، أو بتحصين الأُسَر والأفراد ضد التأثر به**

و - قد لا يكون في البلد المسلم سوى جماعة إسلامية واحدة، وقد يكون لدى بعض الشباب ملاحظات على قيادتها أو على منهجها، وقد يرى بعض الشباب أن الانتساب إلى تلك الجماعة يسبب له مشكلات لا يستطيع تحملها... بل إن هناك جماعات إسلامية لا تقبل بانتماء بعض الناس إليها بسبب ضعف حسِّهم الأمني، أو بعض مواقفهم، أو بسبب انتسابهم إلى أسرة معينة.. فهل نقول لمن ترفض الجماعة ضمهم إليها: عليكم أن تؤسسوا جماعة حتى لا تعملوا بشكل فردي، أو نقول لهم: هاجروا من تلك البلدة إلى بلدة فيها عمل جماعي؟

الخلاصة:

إن كل ما أشرت إليه - وغيره كثير - يؤكِّد شيئًا مهمًّا، هو أن العمل الجماعي وسيلة لتحقيق غايات نبيلة، فإذا رأى بعض المسلمين أنه يستطيع تحقيق الأهداف التي يتطلع إليها أو سد الثغرات التي يقوم على حراستها دون الانتماء إلى جماعة، فلا حرج عليه في ذلك؛ لأن العمل الفردي هو الأصل كما ذكرت قبل قليل.

إن القول بأن العمل الجماعي غاية قد أدى إلى شيء سلبي، هو أن كثيرًا من الشباب ظنوا أنهم بانضمامهم إلى جماعة يكونون قد وضعوا أنفسهم تحت تصرفها؛ ولهذا فقد شعروا براحة الضمير، وصاروا ينتظرون الأوامر من الجهات العليا، ولن تكون هناك مشكلة إذا تأخرت الأوامر، أو لم يكن هناك أي أوامر، على حين أننا حين نقول: إن العمل الجماعي وسيلة، فإننا نضعه تحت طائلة المساءلة ونعرِّضه للتقويم كما هو الشأن مع كل الأساليب والوسائل والأدوات

١٠ - خطاب متشائم:

الخطاب الإسلامي هو الفكر الإسلامي مجسَّدًا في رسالة، وهذه الرسالة قد تكون كتابًا أو خطبة أو درسًا أو رواية... والحقيقة أنه ليس لدينا خطاب واحد، وإنما عدد من الخطابات، هناك الخطاب السلفي، وخطاب الدعوة والتبليغ، والخطاب الصوفي، والخطاب الإخواني وخطاب التنوير، وخطاب المهتمين بالشأن الحضاري... ويمكن أن نرى في الخطاب الواحد، من هذه الخطابات تمييزات وتلوينات تفتُّ في وحدته، وتجعله أقرب إلى التشعب والتعدد. ومن الواضح هنا أنه لا ينبغي وصف كل الخطابات الإسلامية بالميل إلى التشاؤم، لكن يظل من المفيد تسليط الضوء على هذه الظاهرة

المهمة حتى نطوِّر وعيًا جديدًا حولها، **وهذه بعض الملاحظات الموجزة:**

أ - الأصل في رؤيتنا الإسلامية هو تشجيع التفاؤل ومحاولة رؤية الوجه المشرق للأشياء ولدينا العديد من النصوص التي تدل على حبِّ نبينا ﷺ للتفاؤل وتوسيع مجال الأمل، ونحن نلاحظ في السنوات الأخيرة، ولادة تيار جديدة يحث الشباب على التفكير الإيجابي وعلى تلمس جوانب القوة في حياتهم، وهذا شيء جيد، وآمل أن تتسع مساحة هذا التيار.

ب - لدينا صحويون كثيرون قد أضفوا على خطابهم وعلى جلسات مسامراتهم مسحة تشاؤمية داكنة، تصل في بعض الأحيان إلى حدِّ العدمية واليأس الكامل، إنك تشعر وأنت تسمعهم أننا أسوأ شعوب الأرض، وأننا على حافة الانهيار، كما تشعر أنه لا أمل في معالجة مشكلاتنا، وليس أمامنا أي أفق... **وأظن أن هذا يعود إلى أمرين أساسيين:**

الأول: هو مقارنة أحوالنا بأحوال أسلافنا، ولا سيما رجالات القرون الثلاثة المفضَّلة؛ حيث إن كثيرًا من خطبائنا ووعَّاظنا قد اعتادوا حين يتحدثون عن فضائل السلف أن يتحدثوا عن الوجه الآخر للعملة، وهو دائمًا سلبياتنا ونقائصنا، وهذا ولَّد شعورًا بالمرارة لدى كثير من المخاطبين؛ حيث صار الواحد منهم يردِّد دائمًا في داخله: أين نحن منهم؟ والمشكلة - في نظري - تتمثل في وجود خلل في المقارنة؛ وذلك لأن المتحدثين والوعَّاظ يسوقون في أحاديثهم أخبار صفوة الأمة على أنهم نموذج بياني للأجيال التي عاشوا فيها، وحين يسمع عامة الناس ذلك يقارنون أنفسهم بهم، فيصيبهم الإحباط، وإن في استطاعتي القول: إن الرجال الذين نستشهد بهم على أنهم في القمة من الورع والاستقامة والتعبد والجدية والعظمة... لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف أو أربعة، وإذا بحثت في أهل زماننا عمن يقترب منهم في فضله... فإنك ستجد مثل ذلك العدد، بل أكثر؛ ولهذا فإن المقارنة الصحيحة هي أن نقارن خاصة بخاصة وعامة بعامة، ولو فعلنا ذلك لذهب عنا الكثير من التشاؤم والإحباط اللذين يشعر بهما كثيرون منا.

ثم إن من المهم أن ندرك أن الابتلاءات والإغراءات التي يواجهها المسلم اليوم تجعلنا نُجلُّ صمود شبابنا، ونحيي ثباتهم، ونقدِّر ما في قلوبهم من يقين ومن حب للخير، وقد ورد عن النبي ﷺ ما يشير إلى هذا المعنى: « ... **فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن**

مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم »[١]. وفي رواية: قيل يا رسول اللّـه أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: « **بل أجر خمسين منكم** »[٢].

الثاني: ما يُظهره الكتَّاب والمثقفون والمفكرون المهتمون بالنهضة والبناء الحضاري في حثِّ الناس على الإبداع والتجديد والعمل الجاد... حيث إنهم - وما أبرئ نفسي - كثيرًا ما يستبطنون المعايير السائدة في الدول الصناعية المتقدمة، وكثيرًا ما يستخدمون الأرقام الواردة من هناك، ويجري كل ذلك في سياق المقارنة بيننا وبينهم، مما جعل المسلم يشعر بوجود فجوة حضارية كبيرة بين الأوضاع والظروف التي يعيش ويعمل فيها، وبين الأوضاع والظروف المتوفرة للناس في الدول المتقدمة. فهل ما نفعله هو شيء مفيد أو ضار؟

أعتقد أننا لا نستطيع فهم ما نحن فيه بدقة من غير فهم وعرض ما لدى الآخرين؛ إذ طالما كان الوعي بالذات فرعًا عن الوعي بالآخر، لكن علينا ونحن نقارن أن نذكر للناس أن أمة الإسلام تملك الرؤية الاستراتيجية للنهوض والتقدم، وهذه الرؤية مستمدة من المنهج الرباني الأقوم، فنحن قد نضعف، وقد نتوقف، ولكننا نظل بحول اللّـه سائرين على الطريق، وتظل أهدافنا الكبرى واضحة ومتألقة، ثم إن علينا أن نذكِّر الناس بالإمكانات الهائلة المذخورة في عقولهم ونفوسهم، وأن ندرِّبهم على كيفية استثمارها.

ج - شيء جيد أن ندرك أن الإنسان في بنيته العميقة ميَّال إلى التشاؤم، فعقولنا تدرك السلبيات بطريقة أفضل من طريقة إدراكها للإيجابيات، ويشير بعض الدراسات إلى أن الإنسان يتحدث مع نفسه في اليوم قرابة خمسة آلاف مرة، وإن (٨٠٪) من تلك الأحاديث يميل إلى التشاؤم، أحاديث داخلية تدور حول الخوف من الفشل، والخوف من المرض، ومن الخذلان، ومن المستقبل، وخوف من العجز عن تحقيق الأحلام ورفض الآخرين، وخوف من المفاجآت غير السارَّة... ولهذا فإن علينا دائمًا أن نبث معاني الثقة بمعونة اللّـه تعالى والرضا بقضائه وقدره، إلى جانب تشجيع الناس على تذكر ما هم فيه من خير ونعمة.

د - المشكل في الخطاب الإسلامي لا يتمثل في جنوح بعضهم إلى التشاؤم فحسب، وإنما هناك شكل آخر، هو جنوح بعض المتحدثين إلى (تفاؤل) ليس له أي مسوغ،

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي وغيره.

وطالما سمعت من بعض العاملين في حقل الدعوة أن هذا العام سيكون عام نصر وخلاص من الضغوط التي يعانون منها في بلادهم، وحين تسألهم عما يدعوهم إلى ذلك لا تجد لديهم سوى أحاسيس غامضة أو معطيات واهية جدًّا لا تعني أي شيء، وينقضي العام، ولا يتحسن شيء، ويتحول(التفاؤل) إلى مخدِّر يصرف الناس عن الأخذ بالأسباب وبذل الجهد المطلوب!

إن التفاؤل من غير أسباب واضحة وقوية يظل موصولًا بالسذاجة، ولا يليق بالدعاة والمصلحين شيء غير النباهة والتفكير المنطقي...

١١ - الوصاية على المدعوين:

أود في البداية أن أوضِّح ما لا أريده في هذه المسألة، وهو ما يدعيه بعض الناس من أن العلماء والدعاة جعلوا من أنفسهم أوصياء على الذين يدعونهم، ويوردون هذا في سياق الذم،مع أنني أرى أنه من المديح، فأهل كل تخصص هم أوصياء عليه، يقومون بتنميته وتبصير الناس بقضاياه، ويحمونه من الاستغلال السيئ وإلصاق ما ليس منه به.... وعلماء الشريعة والدعاة مكلفون بهذا بالنسبة إلى رسالة الإسلام وعلوم الشريعة، ولم لا والعلماء هم ورثة الأنبياء

أما ما أريده هنا في مسألة الوصاية على المدعوين، فيتمثل في شيئين أساسيين:

عور أبناء الصحوة في بواطنهم بالتميز على الناس ومخاطبة الناس بأسلوب مشحون بالتعالي والخشونة.

وعلينا أن نقول أولًا: إن هذه الملاحظة تظهر في خطاب شريحة من خطباء الجمعة وشريحة ممن يمارسون الوعظ في المساجد والفضائيات، ولا شك أن لدينا دعاة وشبابًا كثيرين يُظهرون في أساليبهم الدعوية الكثير من التواضع والدماثة واللين، ولكننا لا نتحدث عن هذا هنا.

الدعوة إلى اللَّـه تعالى والالتزام بأمره بما ينطويان عليه من الاحتساب وكبح النفس عن الشهوات والمضيّ في طريق الفضيلة... يولِّدان لدى كثير من الصحويِّين الشعور بالتفوق والتميز على الآخرين، وهذا شيء لا يمكن دفعه، لكن إذا تذكرنا أن العمل من أجل الدين والالتزام به نعمة من أجلِّ النعم التي حبانا اللَّـه تعالى إياها، كان علينا أن ننشغل بحمد اللَّـه وشكره عوضًا أن نتلمس الميزات التي حصلنا عليها. إننا إذا

لم نستحضر هذا المعنى فقد تنشأ في نفوسنا حواجز نفسية دقيقة تجعل اندماجنا مع الناس واندماجهم معنا على غير ما يرام، ومن الواضح أن لدى بني الإنسان حاسَّة قوية في إدراك مثل هذه الأمور.

الأمر الثاني الذي يشكل مأخذًا جديًّا على كثير من الدعاة والوعَّاظ - ويمكن بسهولة إلصاقه بالصحويين عامة - هو مخاطبة الناس بأسلوب لا يخلو من شيء من الخشونة والعتاب وأحيانًا التقريع والتوبيخ، وهذا يكون عادة في الأرياف أكثر منه في المدن، **وأود في هذا السياق توضيح الأمور الآتية:**

أ - الطرح المثالي يتيح للإنسان أن يقسو في حديثه على الآخرين، وأشعر أحيانًا أن لدينا معاشر المتحدثين والكتَّاب سذاجة تُشبه سذاجة الأطفال؛ إذ نظن أن الناس مستعدون لأن يقوموا بكل أو جُلِّ ما نطلبه منهم، وهذا يفسر لنا لماذا نطلب منهم أمورًا نحن لا نقوم بها، وننهاهم عن أمور ربما وقعنا فيها، ولا يتوقف الأمر عند الطلب، بل يتجاوزه إلى الإلحاح واللوم والتعنيف ووضع المخاطبين في موضع المتهَم!

ب - من المهم أن ندرك أن الناس اليوم أكثر حساسية للنقد مما كانوا عليه قبل ثلاثين سنة، وهذا بسبب اتساع مساحة الحرية الشخصية وشعور الناس بأن كثيرًا مما يقال يقبل الجدل، وشعورهم أيضًا بأن الذين يعظونهم قد لا يكونون في كثير من الأحيان أفضل حالًا منهم، وهذا كله يجعل الناس لا يقبلون التعبيرات التي تضع المتحدث أو الكاتب في جهة، ومن يتفاعلون معه في جهة أخرى، كما تجعلهم لا يقبلون التعبيرات التي تضخِّم آثار الأخطار التي يقعون فيها، ولا يقبلون الاتهام الواضح بالتقصير... إنهم يرفضون كل ذلك؛ لأنهم يشعرون أن قائله أو كاتبه يمارس نوعًا من الوصاية عليهم، وتلك الوصاية قائمة على اعتقاده بتميزه أو تفوقه على مخاطبيه، وقد كان من شأنه ﷺ أنه لا يذكر في سياق الموعظة أسماء الأشخاص أو القبائل، وإنما يقول: « **ما بال أقوام يقولون كذا، وما بال أقوام يفعلون كذا وكذا** »[1]. حتى لا يثير حفائظ المعنيين بكلامه، وفي هذا درس لنا كي نكون حريصين على احترام مشاعر المستمعين والحذر من التشهير بهم.

من المقبول اليوم أن نعبِّر عن ملاحظاتنا بتعبيرات من نحو:

- نحن نلاحظ اليوم أننا نحرص على...

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره.

- لا يستطيع أحد أن يقول: إنه لم يتأثر برياح العولمة.

- تعالوا لنتأمل في أسباب الجفاء الاجتماعي في البلدة.

- أظن أننا لا نختلف في أهمية تقليص ظاهرة التدخين في الحي.

وهكذا ففي التلميح ما يغني عن التصريح، وفي العبارات الدالة على المشاركة ووحدة الرؤية والاتجاه ما يسهِّل اندماج المخاطبين مع صانع الخطاب.

ج - لو عدنا خمسين سنة إلى الوراء لوجدنا أن الجهل والأمية كانا مسيطرين على نسبة عالية من المسلمين، ومن المعروف أن الناس حين يكون مستواهم الثقافي متدنيًا، فإنهم يتلقون الآراء ووجهات النظر على أنها حقائق ثابتة، وهذا من سنن اللَّـه تعالى في الخلق، وحين يذيع العلم، ويسود الثراء الثقافي يصبح الناس قادرين على التمييز بين الحقائق المتفق عليها وبين ما هو من قبيل الآراء والاجتهادات الشخصية القابلة للنقاش والجدل، وهذا ما نلمسه اليوم. من المؤسف أن بعض الصحويين يطرحون آراءهم - ولا سيما ما يتصل بانتماءاتهم الدعوية - على أنها أمور قطعية متعالية على الخلاف غير مدركين أن ثورة الاتصالات والإنترنت والبث الفضائي قد جعلت شريحة كبيرة من الناس تتضايق ممن يفرض عليها رأيه، أو يسوق شيئًا من أمور الدين أو من أمور الحياة، هو موضع خلاف، على أنه القول الوحيد الصحيح؛ لذا كان من اللائق اليوم أن نبسِّط الآراء المختلفة في أي مسألة مع براهين وحجج كل رأي، ثم نترك للناس مجال النقاش ومجال الاختيار لما يرونه صوابًا، ولا شك أن من حق المتحدث أن يرجِّح ما يراه الأصوب. هذه المسألة ليست ثانوية - كما نظن لأول وهلة - لأنها تمس عمق منهج تداول الأفكار والآراء في العصر الحديث.

١٢ - هل وحدة العمل الإسلامي مطلب ؟

هذه المسألة من المسائل التي تحتاج إلى مراجعة؛ حيث إن كثيرين من شباب الصحوة يعتقدون أن الخلاف بين أهل العلم والدعاة والمصلحين وعموم الصحويين هو سبب من أكبر أسباب تخلف الأمة، ومن أسباب ضعف تأثير الجهود الدعوية في الناس... وسبب حديثي عن هذا الموضوع ما أعرفه عن جهود هائلة تُبذل في كل بلد من بلدان العالم تقريبًا من أجل توحيد كلمة الدعاة أو دمج بعض الحركات الإسلامية في بعضها... والمشكل هو أنك حين تحاول تحقيق شيء يستحيل، أو يصعب تحقيقه،

فإنك تكون كمن سار خمسمائة ميل على أمل الوصول إلى شيء مهم جدًّا، ثم وجد في آخر الطريق لوحة كُتب عليها: عفوًا الطريق مغلق! ثم إن من مساوئ السعي إلى شيء مستحيل التقاعسَ عن البحث عن بديل، والتقاعس عن السعي إلى التخفيف من سلبيات الحالة الراهنة. إذا أردنا أن نعرف: لماذا لا يمكن دمج الجماعات والحركات الإسلامية في بعضها، ولا يمكن توحيد أنشطتها أو التنسيق بينها على نحو كامل... فإن علينا أن نعرف أسباب وجودها، أي لماذا نجد في كل بلد إسلامي - تقريبًا - عددًا من الجماعات والأنشطة الإسلامية المتعددة والمتباينة وأحيانًا المتنافسة والمتصادمة؟

لدينا قاعدة فكرية ومنهجية عامة تقول: كلما اتجهنا نحو الأصول والكليات وجدنا أن الخلاف نادر أو معدوم، وكلما اتجهنا صوب الفروع والجزئيات وجدنا أن الاتفاق نادرٌ أو معدومٌ، وبناءً على هذا نستطيع أن نعرف لماذا اتفق الفقهاء على أن الظهر أربع ركعات، ولماذا اختلفوا في وضع اليدين أثناء القيام، ولماذا اتفقوا على أن الحج فرض، ولماذا اختلفوا في حكم طواف القدوم وطواف الوداع والمبيت في منى... **العاملون في حقول الدعوة والإصلاح مثل الفقهاء تمامًا في أحوال اتفاقهم واختلافهم، إن العمل الدعوي والإصلاحي يقوم على الاجتهاد وتقدير المصالح والمفاسد؛ ولهذا فإن من الطبيعي أن يكون للصحويين في كل بلدة اجتهادات مختلفة، تجعل عملهم في فريق واحد أمرًا غير ممكن. إذا أردنا الخوض في الأسباب المؤدية إلى اختلاف الدعاة، فإنه يمكن لنا أن نعدَّ منها الآتي:**

أ - النشأة والخلفية الثقافية تؤثران تأثيرًا كبيرًا في الاهتمامات؛ ولهذا فإن الذي ينشأ في رعاية أحد الفقهاء يتأسس وعيه على الاهتمام بتفقيه الناس، وكثيرًا ما يجد نفسه زاهدًا في الانخراط في عمل ذي طابع حركي أو إغاثي....

ب - الاختلاف في تقييم الواقع وتحديد الأساليب والأدوات الدعوية المناسبة، فهناك من يعتقد بأن العمل في مجال السياسة هو الأكثر جدوى، وهناك من يعتقد أن التعليم وإلقاء الدروس هو الأَولى...

ج - التكوين الحزبي القائم على التعصب وإحسان الظن بالذات وتخطئة الآخرين، مما يصرف النظر عن التفاهم والتعاون.

د - وراثة المكانة الدعوية؛ حيث نجد في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي من

ورث مشيخة الطريقة الصوفية عن أبيه أو بعض شيوخه، ومن ورث رئاسة جماعة معينة بوصية من أبيه أو شيخه، وهكذا يجد نفسه مسؤولًا عن الحفاظ على تلك الجماعة وعلى منهجيتها في العمل، ويرى أن الاندماج مع جماعة أخرى يضر بذلك.

هـ -بين بعض القائمين على الجماعات الدعوية تحسس نفسي وشيء من التنافس على امتلاك منابر التأثير أو على الاستيلاء على قلوب الجماهير، وهذا يجعل التلاقي صعبًا.

ما العمل؟

إذا كان الحال على ما وصفنا فهل، يكمن الحل في بقاء أمورنا على ما هي عليه، أو أن هناك أشياء يمكن القيام بها؟

في اعتقادي أن هناك أمورًا كثيرة يمكن القيام بها لتحسين العلاقة بين الصحويين في البلد الواحد، ومنها الآتي:

١ -الإقرار بمشروعية الخلاف في الفروع وأساليب العمل في إطار أصول أهل السُّنة والجماعة وفي إطار النصوص القطعية.

٢ -يمكن رفع شعار يقول: أبقى في جماعتي وعملي، وتبقى في جماعتك وعملك، ولكن نتعاون إلى أقصى حدود التعاون، ودائمًا شيء خير من لا شيء.

٣ -إذا لم يحدث تعاون فهذا لا يعني أن الأمة إلى بوار، حيث إن المهم هو عدم التناحر، ونحن نعرف أن كثيرًا من الأعمال الدعوية والخيرية والتربوية تحتاج إلى اهتمام أصحابها بها، ولا تحتاج إلى الاندماج والاتحاد مع أي أعمال مشابهة أو مغايرة.

٤ - من الحيوي أن لا يعكِّر الانتماء على الولاء؛ حيث إن الانتماء إلى جماعة يتطلب السمع والطاعة لقيادتها، وحفظ أسرارها... وينبغي مع هذا أن يظل الولاء لعموم المسلمين، ولو كانوا فُسَّاقًا، فالولاء للمسلم لا يسقط إلا بذهاب أصل الإسلام والخروج من الملة، إن له حق النصح والمناصرة والعدل وعدم إسلامه للعدو، وله حق المعاونة على ما يُصلح أمور دينه ودنياه.

٥ -ينبغي أن يكون موقف الصحوي من الجماعة التي يعمل معها مثل موقف الفقيه النبيه من المذاهب الفقهية، فهو يعرف أن في كل مذهب من المذاهب المعتمدة أقوالًا وأدلة قوية، وأقوالًا وأدلة ضعيفة، وهو يعبد اللَّـه تعالى ويفتي في ضوء تلك المعرفة،

إن الداعية حين يعرف المآخذ على جماعته يصبح أبعد عن التعصب لها، ويجد مجالًا للتعاون مع غيرها.

٦ - طرح المشروعات المشتركة يشكل لونًا من ألوان الوحدة؛ حيث يمكن للعديد من الجماعات أن تدعم مشروعًا دعويًّا أو خيريًّا كبيرًا يعجز في العادة أي منها عن إقامته بمفرده، وذلك مثل إنشاء جامعة كبيرة، أو تدريب خطباء القطر، أو ترتيب بعثات للشباب النابه...

٧ - إن كثيرًا من آثار الفرقة والتشتت يصبح ألطف وأخف في حالة التزام الأدب الإسلامي الرفيع بين الفرقاء والمجموعات ذات الانتماء المختلف والقيام ببعض المبادرات، **ومن تلك الآداب:**

- **إنصاف أبناء الجماعات لبعضهم وإظهارهم لمحاسن المخالف وإيجابياته.**

- **فهم منهجية الجماعة المخالفة والظروف التي تمر بها، والضغوط التي تتعرض لها قبل إصدار الحكم عليها؛ وذلك لأن الظروف الصعبة تدفع دفعًا إلى القيام بإجراء موازنات رديئة.**

- التثبت والتأكد من الأقوال التي تنسب إلى الجماعة المباينة.

- اغتنام كل فرصة ممكنة للتضامن والتعبير عن الاحترام والتحاور والتشاور فيما يعود بالخير على الجميع.

- تغليب حسن الظن عند غموض الأمور.

١٣ - خطورة التنظيم السري:

هذا عنوان لافت، وقد يستغرب بعض القراء الكرام منه، فالذين يُنشئون التنظيمات يفرون من المخاطر ومن الملاحقات التي يتعرضون لها بسبب أنهم يقومون بأنشطة يحظرها القانون في بلادهم، أو هي محظورة لأنه ليس هناك أي قانون، فكيف يكون التنظيم السري خطيرًا؟!.

أقول: إذا كان القيام بأنشطة محظورة يشكل في أحيان كثيرة خطورة على القائمين بها، فإن التنظيمات السرية تشكل خطرًا معنويًّا على القائمين بها وعلى كفاءة الأنشطة نفسها.

أنا أعرف أن كثيرًا من الشباب يقولون: إن من حقنا الدعوة إلى العمل في الخفاء؛ لأننا لا نستطيع أن نتخلى عن واجباتنا تجاه ديننا وأمتنا، وهذا الكلام واضح وقوي، **لكن ينبغي أن أشير إلى الأمور التالية:**

أ - التنظيم السري يتناسب مع الفكر الانقلابي الذي يعتمد مبدأ قلب الطاولة مرة واحدة من خلال استخدام القوة؛ وذلك لأنه يؤمِّن درجة عالية من الانضباط ووحدة الصف وقلة الاعتراض على قرارات القيادة وسرعة الاستدعاء، وحسن أداء المهام القتالية، وبما أن العمل العسكري يشتمل على درجة عالية من الخطورة، فإنه لا يُقدِم على الانتساب إليه إلا أناس جادون وقادرون على التضحية، لكن علينا أن لا ننسى أن لدى معظم القيادات الإسلامية والمفكرين الإسلاميين قناعة راسخة بعقم الانقلابات العسكرية وعقم استخدام القوة في الإصلاح، وبذا يكون التنظيم السري قد فقد أهم دعائم وجوده ومسوغات مشروعيته، ونحن نستثني بالطبع الحركات التي تقاوم المحتل؛ حيث إن شرف المهمة يدعو إلى تحمل سلبيات العمل السري مهما كانت.

ب - قالوا: إن المتكبر يؤسس للاحتقار المتبادل، لأنه يرى الناس صغارًا، ويرونه صغيرًا، ويمكن أن أقول: إن العمل السري يؤسس للخوف المتبادل، فالذي يعمل في منظمة سرية يخاف من الناس حتى لا يكتشفوا أمره، ويخاف منه الناس حتى لا يُحسَبوا عليه، ويُصنَّفوا على جماعته، وفي هذا خسارة كبيرة؛ لأن تربية الناس على الفضيلة تحتاج إلى احتكاك واسع بهم، والعمل الدعوي عامة يحتاج إلى مبادرات إصلاحية والانخراط في تحركات جماهيرية كبيرة من أجل نشر الخير ومحاصرة الشر، وهذا كله يحتاج إلى اختلاط بالناس، وبعضهم يختلط بالناس فعلًا لكن من غير هوية واضحة، فهو كمن يكتب في الصحافة تحت اسم مستعار، وهذا يجعل من العسير عليه تكوين تيار شعبي واضح المعالم والأهداف.

ج - يُضَّطر الذي يخفي هويته الدعوية وانتماءه إلى الكذب في العديد من المواطن، ونحن نعرف أن منهم من حلق لحيته، ومنهم من يتخلف عن صلاة الجماعة، وبعضهم يدخن... وكل ذلك من أجل التخفي والتمويه، وهذا يؤثر كثيرًا على الجانب الروحي لدى الإنسان، ويؤسس للازدواجية في شخصيته.

د - لو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن كل المذاهب والأفكار المنحرفة نشأت

في أجواء السرية والكتمان، والحقيقة أن العقائد والأفكار تحتاج - حتى لا تتعفن وتتأسن - إلى الهواء والضوء، وهواؤها وضياؤها هو النقد والنقاش والحوار، ولو نظرت إلى وضعية خلية سرية لوجدت أنها تجتر الأفكار التي لديها اجترارًا، بسبب الانغلاق الذهني الذي ابتليت به، وفي هذه الحال تنمو الأخطاء وتكبر الانحرافات دون أن يشعر أحد.

هـ - من طبيعة التنظيم السري إضعاف ولاء المنخرطين فيه لكل التكوينات الاجتماعية المحيطة، وتقوية الولاء للقيادة، وتظهر المشكلة عند الاختلاف مع القيادة أو مع التنظيم؛ حيث يتحول الولاء الشديد إلى نوع من المفاصلة الشديدة، ومن المألوف حينئذ أن يصاب من يتركون تنظيماتهم بالكثير من الإحباط واليأس، فيتحولون إلى أشخاص سلبيين، وهم مع هذا يجدون صعوبة كبيرة في العودة إلى المجتمع والجماعة الأرحب بسبب ما سبق من نفور وقطيعة، وهذا مشاهَد بكثرة.

و - إن التنظيم السري يحرم أصحابه من الدفاع عن أنفسهم ضد الذين يتهمونهم بشتى التهم؛ وذلك ببساطة لأنهم لا يملكون الوسائل الإعلامية التي تمكِّنهم من ذلك، كما أن التنظيم السري يحرمهم من الدعم المادي الذي يمكن أن يقدمه المسلمون للدعوة، ونحن اليوم في عصر محوره المؤسسات، وتشييد المؤسسات يحتاج إلى المال، فمن أين يأتي المال لمن يتحرك باسم مستعار وقد غطَّى وجْهَه بالعديد من الأقنعة؟

إن خسارتك لمناصرة الناس لقضيتك لا تعدلها أي خسارة أخرى؛ لأن تخلي الناس عن مساندة أي قضية يعني خسارتها على نحو مؤكد.

ز - العمل الدعوي المعلن قد يلقى بعض التضييق، وقد يجد أصحابه أنهم مكبَّلون، على عكس ما يجده الذين ينطلقون في أنشطة سرية؛ حيث إن عدم تفكيرهم في الحصول على إذن لأنشطتهم يجعلهم يشعرون بنوع من حرية الحركة، وهذا في الحقيقة قد يكون صحيحًا على المدى القصير، أما على المدى المتوسط والبعيد فإن العمل العلني هو الذي يربح؛ لأن النشاط العلني يكون في مأمن من الضربات القاصمة، وهو من خلال مبدأ: (إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكنًا غدًا) يوسع مجالاته باستمرار، ويفتح لنفسه حقولًا جديدة، من خلال اكتساب أصحابه للخبرات وكسبهم لمزيد من الأنصار. تتلخص التجربة التي لمسها كثير من الخبراء في جدوى التنظيمات

السرية في كلمات قليلة، هي أن التنظيم السري لا ينفعك وقت الشدة، ولا تحتاج إليه وقت الرخاء

إني أرجو أن ينظر شباب الصحوة إلى العمل السري على أنه أشبه بأكل الميتة، يلجأ إليه الإنسان عند الضرورة، ويأكل منه على مقدار ما يساعده على أن يبقى حيًّا.

١٤ - الجماعات الإسلامية وضعف الإدارة:

ليس من الإنصاف وضع الجماعات الإسلامية في سلة واحدة، لكن يمكن القول: إن الجماعات الإسلامية التي تدار بطريقة ممتازة وبكفاءة عالية - قليلة جدًّا، وإذا طبقت معايير الجودة التي تضعها الشركات الكبرى لنفسها على معظم المؤسسات والجمعيات والجماعات الإسلامية، فقد لا تنطبق إلا على النزر اليسير منها؛ ولهذا فإن في إمكاننا القول: إن ضعف التنظيم الإداري يشكِّل ظاهرة واضحة لدى الجماعات والمؤسسات الإسلامية، ومن المؤسف القول: إن المؤسسات الإسلامية الحكومية والرسمية ليست بأحسن حالًا من نظيرتها الشعبية، مع أنها تملك إمكانات كبيرة!

السؤال هو: أين مكمن الخلل في الجماعات الإسلامية على الصعيد الإداري؟

في مقاربة سريعة أود الإشارة إلى الآتي:

أ - تم وصف عصرنا بصفات عديدة، منها وصفه بعصر الإدارة؛ وذلك لأن الإدارة باختصار شديد هي: الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة من أجل تحقيق الأهداف المرجوة، وقد ثبت أن مشكلة العالم على مدار التاريخ لم تكن في شح الموارد والحصول على موارد جديدة، وإنما في مدى كفاءة استثمار الموارد المتاحة، وهذا **ينطبق على كثير من الجماعات الإسلامية؛ حيث إن لديها الكثير من الشباب المخلص والراغب في تقديم شيء نافع لكن لم يجد الأطر التي يعمل فيها، ولا المهمات التي تستنفد طاقته. وتتأكد قيمة هذا الملحظ إذا تذكرنا أن عصرنا هذا ليس عصر الأعداد الكبيرة والأشياء المكدَّسة، وإنما هو عصر الإبداع وعصر الفاعلية والتفوق والإنجاز**

ب - شيء جيد أن ندرك بأن المنتمين إلى جماعة إسلامية ليسوا متفرغين لتنفيذ أوامر قيادتها، وليسوا موظفين لديها؛ ولهذا فلا يصح أن نطلب منهم من الإنجاز والعطاء ما نطلبه من الموظف المتفرغ الذي يتقاضى مرتبًا على عمله.

ج - قد يقول قائل: لماذا نحاسب الجماعات الإسلامية على تقصيرها في ترتيب

شؤونها ونحن نعرف أن القيادات والأفراد يقومون جميعًا بعمل تطوعي واللَّـه تعالى يقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

الجواب هو أن الانتماء إلى مؤسسة دعوية أو إغاثية يوفر لصاحبه نوعًا من الشعور بإبراء الذمة وأداء الواجب، وهذا يجعله راضيًا عن نفسه، ويُفقده الكثير من روح المبادرة؛ لأنه ينظر إلى نفسه على أنه جندي تنفيذ، ونحن نعرف أن من النادر أن نرى شابًّا أو كهلًا يعمل مع جماعتين أو أكثر، مما يعني أن انتماءه إلى جماعة لا توظف إمكاناته على نحو جيد يجعله أشبه بقماش نفيس دفعنا به إلى خياط غير ماهر؛ حيث نجد أنفسنا وقد خسرنا القماش، ولم نحصل على ثوب يُلبَس، لكن علينا أن نعترف أيضًا أننا لا نستطيع محاسبة من لا يتقاضى أجرة على عمله كما نحاسب موظفًا وقَّعنا عقدًا واضحًا معه، وهذا يعني أن أداء كثير من الذين يقومون بأعمال احتسابية سيكون أقل من غيرهم.

وإذا تذكرنا ما أشرنا إليه من تراجع المعاني الروحية والحوافز الإيمانية لدى كثير من الناس، فإننا سنعرف أن كثيرًا من الجماعات الإسلامية تعاني من نقص في أعداد الذين يُظهرون استعدادًا للعطاء المجاني الكثيف والمتقن، مما يعني وجود صعوبة في العثور على ما يكفي من الأشخاص الذين يستطيعون قيادة مؤسسات دعوية ممتازة وناجحة

د - يعاني معظم الجماعات الإسلامية من أن هياكلها الإدارية هي هياكل تقليدية بسيطة، ومعظم المشرفين على تلك الهياكل لم يتلقوا أي تعليم أو تدريب يمكِّنهم من تطوير تلك الهياكل أو وضع هياكل جديدة بديلة عنها، بل إن بعضهم لم يألف خلال عمله شيئًا اسمه التحديد الفني للأهداف، ولم يَخْبَر شيئًا، اسمه التخطيط الاستراتيجي الدعوي، أو كيفية المواءمة بين الأهداف الآنية العاجلة وبين الأهداف بعيدة المدى... وكل هذا بسبب أن معظم الجماعات لا تستطيع - لأسباب عدة - إنشاء بيئة حيادية، يمكن لشخص كفء أن يدير بعض أنشطتها دون أن يكون منتميًا إليها، كما هو الشأن في المؤسسات التجارية، وهذا يجعلها مضطرة إلى ترقية أشخاص كثيرين إلى وظائف ومسؤوليات عليا لا لشيء إلا أنه ليس هناك غيرهم!

هـ - الإنسان مفطور على جعل أنشطته ذات غايات محددة، لكنه يجد نفسه مرتبكًا أشد الارتباك في التفريق بين الأحلام والأمنيات وبين الأهداف.. **الأمنية** عبارة عن ثمرة لانطباع شعوري أو نزق عاطفي أو الحدس بشيء من الأشياء، أما الهدف فله شأن آخر؛

حيث إن على من يسعى إلى وضع أهداف حقيقية أن يعرف الكثير من الأمور، منها: المعطيات المتوفرة في البيئة التي يعمل فيها، وأن يعرف كذلك ما لديه من موارد وإمكانات معنوية ومادية، وهذا يتطلب درجة حسنة من الوعي والمعرفة بالذات والمحيط.

أما الهدف فينبغي أن يكون واضحًا ومحدودًا حتى يمكن قياس ما تم إنجازه منه وتحديد مؤشرات التقدم نحوه، وهذا يتطلب خطة لبلوغه، وذلك كأن تقول جماعة دعوية: إننا نستهدف أن تصبح نسبة الذين يقيمون الصلاة في المنطقة الفلانية (٧٠٪) من البالغين خلال عشر سنوات، ويكون هناك تفصيل لما يمكن إنجازه من ذلك خلال السنوات الثلاث الأولى - مثلًا - وتفصيل ما يمكن إنجازه خلال السنوات الثلاث أو الأربع التي تليها مع توضيح الأساليب والأدوات التي ستستخدم في ذلك. هذا مع الأسف غير متوفر لدى معظم الجماعات الإسلامية؛ ولهذا فإنها لا تعرف على أي شيء ستحاسب مسؤوليها، بل إن بعضها لا يعرف: هل الجماعة في تقدم أو في تقهقر؟!

و - عدم وجود قيادات ذات كفاءة عالية، وعدم وجود خطط عملية جيدة، وعدم وجود أهداف واضحة ومحددة... إن عدم وجود كل هذا لدى كثير من الجماعات الإسلامية أدى إلى شيء خطير جدًّا هو ضعف إنتاجية الأفراد الذين ينتمون إلى تلك الجماعات، بل أستطيع القول: إن كثيرين منهم مصابون بنوع من البطالة، فهم لا ينجزون أي شيء، ولو سألتهم عما يقدمونه للمجتمع وللناس من خدمات، وما يبذلونه من جهود على صعيد الدعوة والبلاغ المبين، لم تجد لديهم ما يتحدثون عنه، ولهذا عاقبة خطيرة حيث إن كثيرًا من القيادات يبثون الحماس في نفوس الشباب، ويشحنونهم عاطفيًّا لكنهم لا يوفرون لهم الأطر والبرامج والأنشطة لتفريغ تلك الطاقات، وهذا يؤدي - كما أشرنا - إلى عدم وجود نتائج ملموسة، ويدفع بأولئك الشباب إلى الالتحاق بمنظمات تمارس العنف والإرهاب باسم الإسلام، وفي هذا جناية على أولئك الشباب وجناية على الأمة أيضًا، وعلى سمعة الإسلام العالمية.

إن الجماعات الإسلامية تشكل العمود الفقري للصحوة، وإن القصور في قياداتها والضعف في هياكلها الإدارية، يخفض سقف إنجازات الصحوة، ويولِّد الكثير من المشكلات.

أتمنى أن يكون لدينا مؤسسة خيرية كبرى تكون مهمتها تدريب الناس على قيادة